الفصـــل الرابع

الرحلة .... وأدب الرحلة

أدب الرحلة :

ارتبط ظهور نماذج جيدة من أدب الرحلات بإدراك أصحابها لقيمة الرحلة بكل تفاصيلها كحدث يستحق التسجيل، ومن ثم توزيع اهتماماتهم بين جانبى الإمتاع والتعليم ـ دون فصل بينهما.

والملاحظ أن هذا الإدراك؛ لم يتم الإجماع عليه فى فترة زمنية بعينها، وإنما.. كان النموذج يظهر، ثم تمر فترة طويلة قبل أن يظهر نموذج آخر. فالواضح أن أدب الرحلة لم يكن نوعا أدبيا معروفا أو مهما، وإلا لتغير الحال، ولقى من اهتمام النقاد والقراء الشىء الكثير.

والظاهرة اللافتة فى نماذج أدب الرحلات المعروفة لنا ـ أنها غير مستقلة بذاتها فى كتب، وأن معظمها قصير الحجم، ومن ثم لم تتح الفرصة للرحال ـ بسبب هذا القصر ـ للتعبير عن ذاته جيدا، فرحلات عمارة بن حمزة ،والغزال، ومحمد ابن موسى المنجم، وسلام الترجمان، والإمامين: الشافعى والرازى، والأسير العائد هارون بن يحيى والفتية المغررين المغامرين ـ كلها رحلا قصيرة، ومنها القصير للغاية كرحلات عمارة بن حمزة ومحمد بن موسى وهارون بن يحيى، وكذا معظم النصوص التى يوردها بزرك بن شهريار ـ وإن كان الأخير يتميز بأن كتابه يشبه «معجم رحلات»، وأن جمع هذه الرحلات بعضها إلى بعض يساعد على تكوين رحلة واحدة غاية فى الروعة.

وغريب أن يجمع بين هذه النصوص كون أهدافها مبنية على خيال بحت، أو أنها رسمية؛ فرحلات عمارة بن حمزة والغزال وسلام الترجمان وابن فضلان ـ رحلات رسمية، كما أن دوافع رحلات محمد بن موسى وسلام الترجمان والفتية المغررين هى دوافع من صنع الخيال، سواء أكان هذا الخيال خيال الخليفة الواثق، أو خيال الفتية المغررين أنفسهم. وسواء أكانت هذه الرحلات رسمية، أو ذات أهداف خيالية، فإن ارتباطها بالسلطة واضح، ومن ثم فإن بعضها يمكن اعتباره تقارير رسمية رفعها هؤلاء بعد عودتهم لسادتهم.

وإحدى تلك الرحلات الرسمية احتلت بجدارة المرتبة الأولى فى هذه الحقبة

كلها، وكانت نموذجا متميزا لأدب الرحلة، إضافة إلى غنى مضمونها فى نواح كثيرة، حتى إن دراسات غزيرة قامت عليها ـ أعنى بذلك رحلة ـ أو رسالة ـ ابن فضلان التى نالت شهرة واسعة فى عصرها وعصرنا. ولعل غنى هذه الرسالة فى نواح عديدة هو الذى أتاح الفرصة للتوسع فى دراستها فى هذا العمل وهذا يعنى ـ فيما يعنى ـ أن النص نفسه هو الذى يفرض على الدارس طريقة تناوله.

وهنا يجب التنبيه ـ مره أخرى ـ على أنه لم تظهر حتى الآن نظرية نقدية متكاملة تتناول أدب الرحلات، وإنما الأمر متروك للاجتهاد الشخصى لكل ناقد، ولمدى تجاوبه مع النص.

ومما يؤسف له أن أدبنا الحديث يشهد نشاطا غزيراً على مستوى الإبداع فى هذا الفرع، ولكن.. لا يواكب هذا التدفق حركة نقدية ملائمة ـ اللهم إلا بعض مقالات تنشر بين الحين والحين على سبيل المدح أو المجاملة، أو الدعاية لكتاب فى أدب الرحلة.

ـ ١ ـ

الرحلة التى قام بها «عمارة بن حمزة» إلى ملك الروم يرجح أنها تمت فى عهد الخليفة المنصور وتحت رعايته، وقد أوردها «ابن الفقيه» بنصها دون تصرف فيه[1]. ويبدو أن عمارة كان وحده فى هذه الرحلة الخطيرة، حاملا كتاب الخليفة إلى ملك الروم «يتوعده بالخيل والرجال»(١٣٧).

وقد تعرض عمارة لعدة اختبارات ـ رغبة فى إفزاعه وتخويفه ـ بعد وصوله حاضرة الروم، قال: «فانتهيت إلى مكان يحجب منه الرجل على مسافة بعيدة، فجلست حتى أتى الإذن، فسرت إلى مكان آخر فجلست حتى أتى الإذن ثلاث مرات، ثم وصلت إلى داره ـ الملك ـ فأدخلت دارا، وإذا على طريقى أسدان عن جنبى الطريق، وطريقى عليهما لا أجد من ذلك بدا، فقلت: إن كان لابد من الموت فلن أموت عاجزا، فحملت نفسى، فلما صرت بينهما سكنا، فجزت

(١) مختصر كتاب البلدان، ١٣٧ ـ ١٣٩ .ويلاحظ أن رقم الصفحة سيكتب بعد الاستشهاد مباشرة فيما يلى.

ودخلت دارا أخرى، وإذا سيفان يختلفان على طريقى فحزرت، أنه لو مر بينهما ذبابة لقطعاها، فقلت: الذى سلمنى من الأسدين سيسلمنى من السيفين، فاستخرت الله ومضيت، فلما صرت بينهما سكنا»(١٣٧).

وبعد دخوله قصر الملك تعرض لما يشبه الألعاب السحرية، إذ كان الملك مولعا بالعجائب والكيمياء، ثم سلم الرسالة وأدى الكتاب، وقربه الملك إليه، ثم أخذ يتفاخر بما فى مملكته، بيد أن هذا التفاخر قوبل بسخرية عمارة، وقبل الرحيل أظهر الملك براعته فى الكيمياء، فحول الرصاص والنحاس إلى فضة وذهب، وكان أعجب مارآه عمارة أن الملك «كان إذا أراد أن يصرف الناس خرجت فى ظهر كل رجل كف من الحائط فتدفعه، فيعلم أنه قد أمر بالقيام» (١٢٩).

وبعد العودة «حدثت المنصور بهذا الحديث، فكان هذا الذى حداه على طلب الكيمياء» (١٣٩).

رغم قصر هذا النص فإنه متميز، حيث وصلنا بعبارات المؤلف الأصلية، كما أنه دال على شخصيته، تلك الشخصية الجريئة المقدامة الواعية بمهمتها وتمثيلها لحضارة بأكلمها، تلك الشخصية التى أسرت الملك بحديثها، فرفع الكلفة فيما بينهما.

إن عمارة لم يكتف بالوصف، بل تعداه إلى النقد المتمثل فى سخريته من الملك عندما افتخر بنباتات يعتقد فى ندرتها رغم أن بعضها ـ عند العرب ـ «فى أخرب المواضع والمفاوز، وأنه مباح لمن أراده»، أو «حطب الأراذل» .(١٣٨).

ورغم ذلك فهو مولع بالعجائب والغرائب، ويصل ولعه هذا إلى حد السذاجة التى قد تلازم الرحال فى ظروفه الخاصة تلك.

وقد استغل عمارة أنس الملك به، فلم يجد حرجا فى السؤال عن تفسير بعض ما صادفه، رغبة منه فى زيادة رصيده المعرفي.

وفى جلسة سمر مع المنصور حدثه عمارة بهذا الحديث، ويبدو أن المنصور طلب منه تدوينه، أو أن أحد الجلوس رأى فيه من الطرافة ما يستحق التدوين فدونه. وهذا

التدوين تم ـ بلا شك ـ بعد العودة، ولم يلتزم عمارة نهجا محددا، وإن راعى التسلسل المنطقى للأحداث، فجاءت مرتبة زمانا ومكانا.

والنص مفعم بالحركة ذات الانتقالات السريعة التى ساعدت عليها الجمل القصيرة، والأفعال الدالة على الحركة هى السائد مثل «انتهيت ـ جلست ـ سرت ـ مشيت ـ وصلت. أدخلت.. إلخ».

وهناك عدة لوحات أفلح عمارة فى رسمها كلوحة الأسدين والسيفين، ولوحة النباتات العجيبة ـ فى عرف ملك الروم ـ ثم لوحة تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن ثمينة. وأسلوب عمارة سهل غير متكلف يقصد إلى المعنى من أقصر الطرق؛ إنه يصف أحداثا عديدة فى ألفاظ قليلة.. «ثم قمت فمشيت فانتهيت إلى الملك، فسلمت عليه ـ والترجمان بينى وبينه ـ فأديت الرسالة، وأوصلت الكتاب، فأمرنى بالجلوس، وسألنى عن الخليفة وعن أشياء من أمر الإقليم. ثم أمر بمنزل، وإقامة ما أحتاج إليه، وأمرنى بالانصراف والبكور عليه» (١٣٨) . واستخدام «إذا الفجائية» موظف للتعبير عن الدهشة التى اعترته عند رؤيته المعادن «الرخيصة تتحول إلى ثمينة»

* * * *

-٢-

فى الطرف الغربى من العالم الإسلامى شهد الأندلس ازدهارا حضاريا كبيرا، وقويت دولة الأمويين، حتى خطبت ودها الممالك المجاورة، راغبة فى عقد الصلح أو زيادة الروابط. عندما حدث ذلك أصبح الطريق ممهدا لتنشيط السفارات، ولعل أكثر هذه السفارات شهرة وإثارة للجدل تلك السفارات التى قام بها شاعر الأندلس المشهور «يحيى بن الحكم البكرى» الملقب بالغزال (١٥٣ ـ ٢٥٠هـ = ٧٧٠ ـ ٨٦٤م).

ذكر «ابن دحية» فى «المطرب» أن سفارة الغزال «كانت إلى ملك المجوس أى «النورمان» وذكر نفس الأحداث والأشعار التى أوردها «ابن حيان» فى «المقتبس» فى حديثه عن رحلة الغزال إلى إمبراطور القسطنطينية. وقد أثبت الأستاذ «ليفى بروفنسال».. «أن الرحلة لم تكن إلى ملك المجوس، وأنها كانت إلى إمبراطور القسطنطينية، وأن ابن دحية قد اعتمد على عناصر خيالية، ولم يعتمد على حقائق تاريخية. على أنه لا يبعد أن يكون الغزال قد قام برحلة إلى القسطنطينية، وأخرى إلى بلاد النورمان الذين كانوا قد هاجموا الأندلس فى أيامه، والذين أسماهم بعض المؤرخين بالمجوس»[١]. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الهجوم على إشبيلية حدث عام (٢٢٩هـ = ٨٨٤م).

وقد نادى «أحد العلماء الفرنسيين منذ أمد طويل برأى مؤداه أن رحلة الغزال إلى بيزنطة هى الوحيدة التى حدثت فعلا، بينما تستند رحلته إلى «النورمان» على محض اختلاق.. بيد أنه من العسير الاتفاق مع هذا الرأى المتطرف، لأن الرحلة فى واقع الأمر تحفل بتفاصيل واقعية، بل إن شخصية الملك المذكور فى الرحلة والتى أجهد تحقيق اسمه العلماء وقتا طويلا، قد تمكن العلامة النرويجى «زايبل» من إثبات شخصيته»[٢].

افتراض أن الغزال قام برحلة أو رحلتين لن يغير من الواقع الفنى والأدبى شيئا،

---

(١) الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة. د. أحمد هيكل. دار المعارف ١٩٧٩. هامش ١١٥

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٣٦/١.

إذ إن النصوص قد اختلطت، ووصلنا نص واحد يمثل الرحلتين معا هو الذى أورده ابن دحية[1]. والإضافات التى يوردها المقرى فى «نفح الطيب» لاتزيد عن كونها روايات أخرى لحوادث بعينها تختلف قليلا فى تفاصيلها.

الذى لاشك فيه أن النص الأصلى لم يصلنا، وإنما وصلنا وصف مختصر لهذا النص بأسلوب ابن دحية والمقرى لا بأسلوب الغزال نفسه، باستثناء بعض النقول الصغيرة. وهذا الوصف يشى بأن النص الأصلى كان سيمثل طفرة كبيرة فى أدب الرحلة عند العرب.

كان اختيار الغزال لهذه المهمة موفقا، لما كان عليه «من حدة الخاطر وبديهة الرأى وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب»[2]. يضاف إلى ذلك حبه للرحيل والسفر، فقد رحل إلى المشرق وقضى فيه مدة.

لقد كان مكلفا بتسليم رسالة الموافقة على الصلح الذى طلبه ملك النورمان، كما حمل معه بعض الهدايا فى مركب أعد له خصيصا هو وصاحبه: يحيى بن حبيب، وتعرضا لخطر الغرق فى البحر، إلا أنهما سلما، فسجل الغزال ذلك الموقف شعرا.

أراد ملك النورمان أن يهين الغزال وصاحبه بعد وصولهما إلى حاضرته، ففطن الغزال لذلك؛ وتصرف تصرفا ينم عن ذكاء من جانبه، وإهانة لملك النورمان فى الوقت نفسه؛ إذ أرسل الملك للغزال وصاحبه طالبا رؤيتهما «فاشترط الغزال عليه ألا يسجدا له ولا يخرجهما عن شيء من سنتهما. فأجابهما إلى ذلك. فلما مثيا قعد لهما فى أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذى يفضى إليه فضيق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعا. فلما وصل إليه، جلس على الأرض، وقدم رجليه وزحف على إليته زحفة، فلما جاز الباب استوى واقفا... فقال (الملك): «هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم»، وعجب من جلوسه إلى الأرض وتقديمه رجليه فى

---

(١) المطرب فى أشعار أهل المغرب: ابن دحية. تحقيق/ مصطفى عوض الكريم. الخرطوم ١٩٤٥هـ، ١٣٠ ـ ١٣٦.

(٢) المطرب فى أشعار أهل المغرب ١٣٠ .

الدخول، وقال: «أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا أنه رسول لأنكرنا عليه ذلك».. وللغزال معهم مجالس مذكورة.. فى بعضها جادل علماءهم فبكتهم، وفى بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم»[1].

شغل الغزال من نقلوا عنه بمغامراته ونوادره مع زوجة الملك؛ فقد أعجبت به وبظرفه فاختصته بمجلس يومى تسأله ـ فيه ـ عما بدالها، وكان إعجابها به يزداد نظرا لذخيرته المتجددة من الحكايات والنوادر، وخبرته الكبيرة فى معاملة النساء.

إن التفات الغزال إلى نفسه، واعتبارها موضوعا يمكن الاتكاء عليه جعل من الرحلة أدبا خالصا، فلم تحم شبهة الجغرافيا حولها؛ لأن الغزال كان يعى أنه أديب مبدع قبل كل شىء، وأن الوصف العلمى الجاف ليس من وظيفته، وخسارتنا المتمثلة فى ضياع نص الرحلة الأصلى ـ لهذا ـ كبيرة.

إن هذه الرحلة الرسمية وفرت على الغزال كثيرا من المتاعب التى يعانيها الرحال فى الإعداد والتجهيز والانتقال وتوفير النفقات، كما أن الأمن من الأخطار البشرية كان متحققا؛ لذا فإنه كان سعيدا بمهمته محبا لها؛ لأنها أتاحت له الفرصة لاستخدام طاقاته المعطلة، ولإثبات مهاراته المتعددة، كما أنها وفرت له فرصه إثبات ظرفه الذى يلازمه أينما حل.

لهذا انطبعت الرحلة بطابع الظرف والتلقائية وعدم التكلف أو ادعاء الوقار. إن الصراحة التى حكى بها الغزال أحداث رحلته عملة نادرة قلما تتوفر فى كثير من الرحالة، ولو توفرت لاكتسبت رحلاتهم شيئا كثيرا من الاحترام والطرافة.

كان لجوء الغزال إلى حكاية بعض التفاصيل الدقيقة سببا فى ازدياد قيمة رحلته الأدبية، ورغم ذلك فهو لم يورد من التفاصيل إلا ما يمثل متعة أو إفادة للقارئ، وساعده على الانتقاء ذوقه الأدبى المهذب والمنقح.

ورغم أن النص الأصلى للرحلة لم يصلنا فإن معالمه الأساسية واضحة، وهى معالم تقليدية، يبدأ بالمقدمة التى توضح ظروف الرحلة وأسبابها والاستعداد لها، ثم

---

(١) نفسه ١٣٢

يشرع فى وصف حاضرة النورمان وما لاقاه فيها، وأخيرا يحكى ـ باختصار ـ كيف عاد من رحلته التى استغرقت عشرين شهرا.

والمحور الذى يجمع هذه الأطراف الأربعة كان الغزال نفسه الذى مثل رابط الأحداث المنطقى والطبيعى، فلم تبد مفككة أو متنافرة.

ولأن الغزال يحمل بين جنباته روح فنان واع، مضى يحكى تفاصيل رحلته لأصدقائه، بعد أن كان قد دون كثيرا منها وقت حدوثها مستخدما الشعر حينا والنثر أحيانا، بل قام بالتعليق عليها، وأجاب على بعض التساؤلات حولها. ويبدو أن الذى جمع أطراف هذه الحكاية هو «تمام بن علقمة» الذى لقى الغزال وسمع منه تفاصيلها، وسأله عن مواضع فيها، كما أدلى ببعض الإيضاحات حول الغزال وحياته.

ولابد أن الغزال قد استخدم كل مهاراته فى التدوين أو الحكاية بأسلوب رشيق جذاب للقراء والمستمعين؛ فقد استخدم الشعر والنثر، كما استغل عنصر الحوار استغلالا ذكيا مكثفا، فأكسب رحلته كثيرا من الحيوية والحركة، وجعل منها رواية متسقة مشوقة رغم واقعيتها. وبذلك كله مثلت رحلة الغزال خطوة طيبة فى سبيل الوصول نحو «أدب رحلة عربى» ـ رغم ضياع النص الأصلى.

* * *

ارتبطت عدة رحلات رسمية باسم الخليفة الواثق بالله (تولى ٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ = ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) وهى تظهر مدى شغف الخليفة بكل غريب وعجيب، حتى إن دوافعها كانت ـ فى الغالب ـ دوافع خيالية لا تستند إلى منطق سديد.

من هذه الرحلات رحلتان قام بهما محمد بن موسى المنجم (توفى عام ٢٥٩هـ = ٨٧٣): الرحلة الأولى كانت للتأكد من وجود أهل الكهف بالقرب من عمورية، «ويميل علماء البيزنطيات إلى اعتبار هذه الرحلة واقعة تاريخية صحيحة»[١]. أما الرحلة الثانية التى شارك فيها محمد بن موسى بأمر الخليفة، فقد أرسلها إلى طرخان حاكم الخزر، وهى ترتبط برحلة «سلام الترجمان» المشهورة إلى سد يأجوج ومأجوج.

لقد أكد ابن خرداذبه على واقعية الرحلة الأولى، ونقل نصها من خلال حديث مباشر مع صاحبها[٢]، أما الثانية فلم يتعرض لها بذكر، بينما ذكرها «المقدسى» فى سياق نص رحلة سلام الترجمان[٣]، ولعلها كانت إضافة منه، لأن النص الأصلى الوارد فى كتاب ابن خرداذبه ـ والمنقول شفاها عن سلام نفسه ـ لم يشر إلى الرحلة الثانية.

وعلى هذا فقد وصلنا نص الرحلة الأولى فقط من خلال رواية ابن خرداذبه، ونقلها عنه من تلوه مع بعض الإضافة أو التحريف.

والنص نقله ابن خرداذبه عن محمد بن موسى نفسه، وهو يصور رحلته إلى «خرمة» التى كان يعتقد أن بها أصحاب الرقيم، تلك الرحلة التى أولاها الخليفة اهتماما خاصا ،فكتب إلى عظيم الروم طالبا منه توجيه من يرشد محمدا إلى خرمة، ففعل، ووصل محمد وغلامه إلى حيث يوجد أصحاب الرقيم، وحينئذ بدأ فى سرد ما حدث له بألفاظه مركزا على ما حدث داخل الكهف.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١/١٣٣.

(٢) المسالك والممالك ١٠٦، ومعجم البلدان ٣/٦١.

(٣) أحسن التقاسيم ٣٦٣، والمسالك والممالك ١٦٢.

لقد كان حارس الكهف حريصا على إبعاده عن الأجسام الموجودة بداخله، وفطن محمد إلى ذلك، فشك فى حقيقة هؤلاء، وصمم على فحصهم بنفسه مما أدى بالحارس إلى ادعاء أن من يفعل ذلك يصاب بآفة فى بدنه، فقال محمد: «دعنى أنظر إليهم وأنت برئ، فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى، فنظرت إليهم فى مسوح تتفرك فى اليد، وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها؛ وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم، غير أنى أمررت يدى على صدر أحدهم، فوجدت خشونة شعره وقوة نباته. وأحضر الموكل بهم طعام، وسألنا الغذاء عنده، فلما ذقنا طعامه أنكرنا أنفسنا فتهوعنا (قئنا عمدا)، وإنما أراد أن يقتلنا أو أن يغصنا فيصح له ما كان يدعيه عند ملك الروم من أنهم أصحاب الرقيم ،فقلنا: إنما ظننا أنك ترينا موتى يشبهون الأحياء، وليس هؤلاء كذلك»[1].

والظاهرة اللافتة فى هذا النص القصير ـ وأمثاله ـ أنه يفعل فعل القصة القصيرة فى عصرنا، إذ يميل إلى التركيز والتكثيف، ويبتعد عن الخلط والتشويش؛ لذا فإن التركيز على شخص الرحال ـ فى موقف ـ يشبه ما يفعله القصاصون المحدثون.

إن محمد بن موسى مكلف بمهمة رسمية عليه أن يقوم بها، ورجوعه دون تحقيقها يعرضه للعقوبة أو غضب الخليفة عليه ولومه، ومن ثم عليه استغلال كل طاقاته.

لقد كان مستنفر الحواس، حتى إنه أحصى الخطوات التى سارها فى السرداب المؤدى إلى الكهف. واستطاع ـ بسهولة ـ اكتشاف خدعة حارسه، ووسط هذا الجو المخيف قرر أن يتأكد بنفسه من الحقيقة ليدل على أن روح المغامرة فى داخله، كما أن السم لم يؤثر فى بدنه القوى، فتقيأه ـ بسرعة ـ ليعود سالما، وليخبر الخليفة بما حدث.

التمهيد القصير الذى يورده ابن خرداذبه لا يدل على أن ثمة مقدمة كانت فى النص الأصلى، ووصف رحلة الذهاب غير واف بها، والتركيز على المنطقة هدف

---

(١) المسالك والممالك ١٠٧.

الرحلة. أما رحلة العودة فقد أغفلها محمد بن موسى تماما. وربما يكون ابن خرداذبه قد أسقطها لأنها لا تتعلق ـ فى تقديره ـ بالغرض الذى من أجله استشهد بالنص.

بعد العودة قدم تقريرا رسميا بما حدث أثناء الرحلة ليقرأه الخليفة، كما أخبر الخليفة شفاها بكافة التفاصيل. وعندما قابل ابن خرداذبه أعاد عليه هذه التفاصيل، ودونها ابن خرداذبه بألفاظ محمد بن موسى مع بعض التصرف الذى لا يخل بالجوهر.

لغة النص مكثفة، تعرض الحقائق دون اهتمام بزينة لفظية قد تحجبها، وتستخدم الأفعال التقليدية الدالة على الحركة، كما تستخدم عنصر الحوار مما يشى بصحة الرحلة، وواقعية أحداثها.

-٤-

ومن بين هذه السفارات التى خرجت بأمر الخليفة الواثق سفارة «سلام الترجمان» إلى الصين للتأكد من أن السد الذى بناه ذو القرنين لما يزل على حاله، ويبدو أن حديثها كان منتشرا ومشهورا فى العصور الوسطى.

المعلومات المتوفرة عن «سلام» قليلة، ولا تتعدى أن تكون نتفا نقلها لاحق عن سابق، فابن خرداذبه ـ وهو أوثق مصادرها ـ ينقل تفاصيل رحلته فى نص موثق، ويقدم له بقوله: «حدثنى سلام الترجمان أن الواثق بالله لما رأى فى منامه كأن السد الذى بناه ذو القرنين بيننا وبين «يأجوج ومأجوج» قد انفتح، فطلب رجلا يخرجه إلى الموضع فيستخبر خبره، فقال «أشناس»: «ماها هنا أحد يصلح إلا سلام الترجمان، وكان يتكلم بثلاثين لسانا»[١].

وهذه الثلاثون لسانا قابلة للزيادة عند غير ابن خرداذبه، فقد «حكى عن سلام الترجمان ـ وكان عارفا بألسن كثيرة، حتى قيل: إنه كان يعرف أربعين لغة ويجارى فيها ـ أنه رأى السد عيانا[٢]» وادعى «ابن رسته» فى الأعلاق النفسية أن ابن خرداذبه قال: «حدثنى سلام الترجمان ـ وكان يترجم كتب الترك التى ترد على السلطان (؟) الواثق بالله قال». [٣]. والواضح أن علاقته بالواثق كانت قوية إلى درجة مكنته من الفوز بثقته، كما كان يتمتع بميزات عديدة أهمها الشباب والقوة الجسدية والذكاء والأمانة، وكان شبابه وقوته الجسدية من أسباب عودته موفور الصحة بعد الرحلة الشاقة، وبعد أن «مات من الرجال الذين كانوا معنا ومن مرض منهم فى الذهاب اثنان وعشرون رجلا: من مات منهم دفن فى ثيابه، ومن مرض خلفناه مريضا فى بعض القرى، ومات فى المرجع أربعة عشر رجلا، فوردنا «نيسابور» ونحن أربعة عشر رجلا»(١٦٩).

ويبدو سلام ـ من خلال النص ـ مثقفا يساعده على ذلك معرفته الواسعة

---

(١) المسالك والممالك ١٦٢ ـ ١٦٣، ويلاحظ أن الاستشهاد بهذا النص سيضمن المتن فيما يلى.

(٢) خريدة العجائب وفريدة الغرائب. عمر بن الوردى مطبعة البابى الحلبى ١٩٣٩، ١٩

(٣) الأعلاق النفسية. ابن رسته ليدن ١٩٦٧، ١٤٩.

باللغات، كما يبدو مرتبا منسقا قد أعد لكل شيء عدته، ،وما قبوله القيام بهذه المهمة إلا الدليل العملى على كونه مثقفا متعطشا للمعرفة النظرية والعملية التى تفيدها الرحلة.

وفى المواضع القليلة التى كان يتحدث فيها عن نفسه يذكر أنه كان يسأل ثم يتلقى الجواب الذى يدونه، وحتى المعلومات التى يقدمها دون النص على أنها إجابة سؤال لا يمكن إلا أن تكون كذلك، لأنه دائما يقدم لها بقوله:«ذكروا»، وإذا صح أنه ذهب بالفعل إلى هذا السد، أو إلى سور الصين العظيم ـ كما يعتقد بعض الباحثين ـ وأنه حك حديدا ليريه الواثق، فإن هذا يدل على نزعة إيجابية نشطة، ثم على ذكاء بإقامته دليلا عمليا ملموسا على صحة حجته.

وصلنا نص رحلة سلام فى رواية موثقة تضمنها كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبه، وزاد من الثقة فى هذه الرواية أنه نقلها عن مصدرين: عن سلام نفسه، وعن تقرير كتبه سلام للواثق، أو كما يقول هو: «فحدثنى سلام الترجمان بجملة هذا الخبر، ثم أملاه من كتاب كان كتبه للواثق بالله»(١٧٠)

وعندما شرع المقدسى فى نقل هذه الرواية صدرها بقوله: «قرأت فى كتاب ابن خرداذبه وغيره فى قصة هذا السد على نسق واحد، واللفظ والإسناد لابن خرداذبه، لأنه كان وزير الخليفة، وأقدر على ودائع علوم خزانة أمير المؤمنين، مع أنه يقول: حدثنى سلام الترجمان أن الواثق بالله..»[1].

وقد نالت هذه الرواية انتشارا واسعا فى الأدب العربى، ورواها «الجغرافيون المتقدمون والمتأخرون مع تفاوت فى التفاصيل مثل: ابن رسته، وياقوت، وأبى حامد الغرناطى، والإدريسى، والقزوينى، والنويرى وغيرهم. وحفظ لنا الإدريسى بضعة تفاصيل منها وجدت على ما يظهر فى المسودة الأصلية لابن خرداذبه التى لم تصل إلينا وسقطت من موجز كتابه الموجود بين أيدينا»[2].

هذا فيما يتعلق بمدى الثقة فى نص الرحلة، أما الرحلة نفسها ـ كحدث ـ فقد دار حولها جدل شديد، وتطرف من تعرضوا لها بين التأكيد على صحتها،

---

(١) أحسن التقاسيم ٣٦٣.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١/١٤٠.

واعتبارها ضربا من الخيال، وتوسط آخرون فمنحوها بعض ـ لاكل ـ ثقتهم[1] .وقد تعرض سلام نفسه لحملة ظالمة قادها د/ حسين فوزى، مدعيا أنه حكى مشهدا غريبا لجارية تخرج من البحر، وهو فى ادعائه هذا مصدق للقزوينى الذى نقل هذا الادعاء ـ بدوره.. عن أبى حامد الغرناطى. وأبو حامد الغرناطى لم يذكر اسم سلام الترجمان مطلقا عند ذكره لهذه الرواية، وإنما قال: «ولقد حدثنى بعض التجار»[2]، فتحول «بعض التجار» عند الغرناطى إلى «سلام الترجمان» عند القزوينى [3]، ووجد د/ حسين فوزى الفرصة سانحة لمهاجمة سلام والسخرية الشديدة منه دون أن يكلف نفسه التحقق من صحة الواقعة، أو التثبت من النص الأصلى[4]، وقد ذكر المسعودى هذه الحكاية أيضا دون التعليق عليها[5].

الواضح من نهج سلام أنه لم يجنح إلى حكاية كل مشاهداته فى رحلته، وإنما اقتصر على ما هو ضرورى، ذلك أنه سيرفع تقريره إلى الخليفة الذى يهمه ـ فى المقام الأول ـ الاطمئنان على سلامة السد. لذلك فإن الاعتقاد الأقرب للصواب أن النص الذى بين أيدينا ـ فى أغلبه ـ نص التقرير الفعلى الذى قدمه سلام للخليفة، وأنه قد أثبت فى مسودات ابن خرداذبه المتأخرة، وأن المسودات الأولى قد تضمنت بعض الحكايات الشفهية التى حذفت من المسودات المتأخرة، ولكن بعد أن ذاعت المسودات الأولى .ولعل تأييدا لهذا يقدمه ابن خرداذبه حين قال: فحدثنى سلام بجملة هذا وأملاه على من كتاب كان كتبه للواثق»(١٧٠).

تسيطر البنية الرباعية التقليدية على رحلة سلام الترجمان التى تتكون من:

١ ـ مقدمة قصيرة. ٢ ـ رحلة الذهاب. ٣ ـ وصف المنطقة هدف الرحلة.

٤ ـ رحلة العودة.

---

(١) انظر: الأعلاق النفيسة ١٤٩، ومعجم البلدان ٣/٢٠٠ ،وتاريخ الأدب الجغرافى العربى١/١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) تحفه الألباب ونخبة الأعجاب. أبو حامد الغرناطى. تحقيق جبرائيل فيران. باريس ١٩٢٥، ١١٩ ـ١٢٠

(٣) عجائب المخلوقات ١٢٦.

(٤) حديث السندباد القديم ١٣٥. و الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ١٧ .

(٥) مروج الذهب ١/١٩٥.

والمقدمة ـ رغم قصرها ـ صورت الجو الذى كلف فيه سلام برحلته، ثم دلت على خطورتها التى قد تنتهى بموت من يقوم بها، لذا فإنه يتسلم ديته مقدما. ومن الطريف أن ينص سلام على كيفية التجهيز للرحلة؛ إذ أمر الخليفة «أن يهيأ للرجال اللبابيد، وتغشى بالأديم، واستعمل لهم الكستبانات بالفراء والركب الخشبية، وأعطانى مائتى بغل لحمل الزاد والماء» (١٦٣) فلم «يسلم من البغال التى كانت معنا إلا ثلاثة وعشرون بغلا»(١٧٠).

وفى رحلة الذهاب نص على أنهم تزودوا الكتب من الحكام إلى من يليهم مما سهل المهمة كثيرا؛ فقد كانوا يمدونهم بالنصائح والأدلة؛ فملك الخزر ـ على سبيل المثال «وجه معنا خمسة أدلاء، فسرنا من عنده ستة وعشرين يوما، فانتهينا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنا قد تزودنا قبل دخولها خلا نشمه من الرائحة المنكرة، فسرنا فيها عشرة أيام»(١٦٣). وقد ترتب على هذا الاطمئنان وذلك التنسيق والتجهيز الدقيق ألا تمر السفارة بأخطار ينعكس أثرها على نص رحلة الذهاب، لذا جاءت خلوا من الحركة التى قد تنجم عن الترقب والقلق، وأثرت طريقة التدوين ـ إلى حد كبير ـ فى هذا. ولا يخفف من هذا الجمود إلا الموقف الحوارى بين سلام وأهل الحصن، ذلك النص الذى أورده «النويرى» بتفصيل أكبر[1].

وبعد أن يفرغ سلام من وصف منطقة السد يشرع فى وصف رحلة العودة التى تماثل ـ إلى حد كبير ـ رحلة الذهاب، ولكنها تقدم كشف حساب السفارة من المفقودين سواء أكانوا موتى أو مرضى ـ من البشر أو البغال ـ ثم يختتم بالنهاية السعيدة.. بالوصول إلى نقطة الانطلاق وطمأنة الخليفة. وبذلك تنتهى الرحلة نهاية طبيعية.

ويبدو ـ من النص ـ أن زيادات قد أضيفت إلى التقرير الأصلى الذى كان يقتصر على وصف السد فقط، بينما يمثل ما سبقه وما تلاه رواية شفهية اختص

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب. شهاب الدين النويرى. دار الكتب المصرية ١٩٢٩، ٣٦٢/١.

بها سلام ابن خرداذبه، ودليل ذلك أسلوب سلام نفسه، فهو لا يتوجه بخطابه للخليفة مباشرة، ولو فعل لدل أسلوبه ـ من خلال آيات الثناء والتحفظ ـ على ذلك.

ويبدو ـ كذلك ـ أن سلاما صرح بما دونه ابن خرداذبه بعد خلافة الواثق، لأنه يتحدث عنه وكأنه ليس خليفة، خاصة أن خلافة الواثقة لم تزد على خمس سنوات قضى منها سلام عامين وثلثا فى رحلته.

إن مارآه سلام فى رحلته كثير، وإثباته ـ كله ـ يمثل عبئا لا يمكن القيام به، والاختيار ضرورى، ومجال الاختيار محدود، وسلام يعرف المطلوب منه تماما، وينفذه دون حاجة إلى توجيه.. هذا فيما يتعلق بوصف السد أو وصف المنطقة هدف الرحلة، أما ما قبل ذلك وما بعده فقد دون اعتمادا على الذاكرة، وهنا وقع سلام فى حيرة سرعان ما خرج منها لأنه اعتمد منهجين:

(أ) الاعتماد على الذاكرة التى نقحت ما اختزنه، ولم تبق إلا البارز المهم.

(ب) اتباع خط سير الرحلة دون الخروج عليه إلا لذكر شىء هام لم تسقطه الذاكرة.

إن تدوين الرحلة مر بمرحلتين: (أ) كتابة تقرير رسمى للخليفة، وقد اتسم هذا التقرير بالإيجاز الشديد والبساطة فى العرض، وعدم الخروج عن الموضوع، والدقة فى التعبير.

– التقديم والتعليق بحديث شفهى أدلى به سلام لابن خرداذبه، وقد انطبع الجزءان كلاهما بظروف تدوينهما، فجاء التقرير علميا تتضح فيه خصائص الأسلوب العلمى، بينما جاءت الأجزاء الأخرى مراعية للأسلوب الأدبى، وبخاصة فى استخدامها طريقة الحكى التى أملتها طبيعتها. ويغلب أن يكون التقرير قد كتب أثناء الرحلة نفسها فى وقت قريب من مشاهدة السد[1]، فاحتفظ بدقته الفائقة حيث استخدم لغة الأرقام التى لا تكذب، هذا بينما اعتمدت الأجزاء الأخرى على الذاكرة التى إن اثبتت شيئا أغفلت أشياء.

---

(١) نهاية الأرب ٣٦٤/١.

إن حوالى خمسين رجلا رافقوا سلاما فى مهمته الصعبة، وكان حضورهم مقصورا على تحويل «تاء الفاعل» إلى «نا الفاعلين»، أو «الأنا» إلى «نحن» فى أغلب الأحيان، وقد يثور سلام على هذه السيطرة ويتذكر أنه قائد السفارة فتعود «نا الفاعلين» أو «الأنا» لتطل برأسها من جديد، وحتى فى هذه الثورات يلاحظ أنها ما تكاد تنشط إلا لتهدأ أو تخمد؛ لذا فإن تتبعا لشخصية سلام ـ من خلال النص ـ يصبح صعبا.

صحيح أن سلاما يمثل الشخصية الرئيسية، وأن الشخصيات الأخرى تقترب من أن تكون شخصيات مساعدة مساندة، إلا أن هذا، أو ذاك ـ لم يترجما عمليا خلال النص:

لقد اكتسب سلام لقب «الترجمان» لبروزه فى مجاله:

- وأسلوب المترجم أسلوب يخلو عادة من التزيين والتعقيد، ويقصد إلى المعنى مباشرة من أقصر الطرق.
- والتقرير سيرفع للخليفة؛ لذا فإنه لابد أن يتسم بالدقة والبساطة فى العرض.
- والحديث الشفهى مع ابن خرداذبه لابد أن يرتبط بالتقرير الأصلى، والوضع الطبيعى للتقرير ـ حسب خط السير ـ فى منتصف الرحلة، ومن هنا فالحديث لابد أن يكون مقدمة وتعقيبا على التقرير.
- ولا وقت ولا مجال للمقدمات التقليدية التى اعتادها كتاب ذلك العصر، بل المطلوب مقدمة قصيرة دالة.. هكذا فكر سلام.. ثم نفذ.
- والسرد فى الرحلة مبسط ودال، لا يخضع إلا لعامل واحد هو خط سير الرحلة، فلا يظهر أسلوب القفز أو الاستطراد أو التعويج.
- والأفعال المستخدمة يغلب عليها طابع الحركة، مثل: شخصنا ـ وجه ـ تزودنا ـ انتهينا ـ سرنا ـ صرنا ـ سألنا ـ أقبلنا ـ انصرفنا ـ وردنا.. إلخ.
- والمفردات ـ فى مجملها ـ سهلة، واضحة المعنى باستثناء الجزء الخاص بالسد الذى يحتاج إلى دراسة خاصة تفسر ألفاظه، وإن كانت مفهومة فى سياقها.

- وقد يبدو نسق الجملة مختلا فى بعض الأحيان.
- والخطأ النحوى شائع فى تذكير العدد وتأنيثه خاصة، وربما عاد ذلك إلى ناسخ المخطوطة أو محققها الذى يجانبه الصواب فى قراءة كثير من الكلمات ورسمها إملائيا.
- وهناك مواقف حوارية قصيرة بين سلام وبعض المسلمين وأهل السد، وهذا يؤكد الصبغة الأدبية للرحلة.

* * *

فى عام ١٣٥٠هـ نشر الأستاذ محب الدين الخطيب نص «رحلة الإمام الشافعى» وحكى أنه كان كثير الأخطاء؛ ومن ثم قدم ناشره الأول البراءة من صحة بعض تفصيلاته. فغم الأستاذ لذلك، ولم يهدأ له خاطر إلا بعد أن نشرها مصححة فى «المطبعة السلفية» ليقدم بذلك خدمة جليلة لقراء العربية.

ونص هذه الرحلة يستغرق ثمانى سنوات كاملة، وقد راعى فيه الإمام الشافعى أن يقدم صورة معبرة عما عاناه خلالها فى طلب العلم، وحفل هذا النص بكثير من اللمحات والإشارات الذكية التى تجعل منه نصا جيدا طريفا يدخل «أدب الرحلة» من أوسع أبوابه.

ودرجة الثقة فى هذا النص عالية، فقد استمر الرواة فى تناوله ـ شفاها وتدوينا ـ ما يزيد على الثلاثة قرون ونصف القرن، وترتفع سلسلة الرواة إلى الربيع بن سليمان الجيزى تلميذ الشافعى الذى يقول فى بداية النص:«سمعت الشافعى يقول...»(١)

والنص يحكى كيف أن الإمام الشافعى خرج من مكة المكرمة ـ فى طلب العلم ـ وهو لما يتجاوز أربع عشرة سنة، ورحل إلى المدينة دون استئذان أمه التى يسميها «العجوز»؛ ليصل إلى المدينة عصر اليوم الثامن، ثم يقيم فى ضيافة الإمام «مالك» ثمانية أشهر يغادر بعدها إلى الكوفة، ومن ثم يطوف فى العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم. ولما بلغ الحادية والعشرين ـ وكان حينئذ فى الرملة ـ قرر العودة إلى المدينة ليرى الإمام مالكا بعد أن أصبح غنيا، فوصل المدينة عصر اليوم السابع والعشرين، ومكث بها ثلاثة أيام، ثم غادرها إلى مكة. فلما وصلها حثته أمه على إنفاق ما معه من مال ـ وكان مالك قد وهبه مالا كثيرا ـ لئلا يدخل عليها مفتخرا، ففعل، وسار بذلك الفعل الرجال على آباط الإبل، فأعجب مالك بفعله، ووعده بأن يرسل إليه مبلغا مماثلا كل عام. يختم الشافعى قائلا:

---

(١) رحلة الإمام الشافعى. نشرها محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية القاهرة ، ١٣٥٠هـ، ص٥

«وأقام مالك ـ رضى الله عنه ـ يحمل إلى كل عام مثل ما كان دفع إلى أول مرة وظيفا إحدى عشرة سنة. فلما مات مالك ـ رحمه الله ورضى عنه ـ ضاق بى الحجاز، وخرجت إلى مصر، فعوضنى الله عبد الله بن الحكم، فقام بالكلفة، فهذا جميع ما لقيت فى سفرى. فافهم ذلك يا ربيع» قال الربيع: «فسألنى المزنى إملاء ذلك بحضرته، فما وجدنا بالمجلس فرصة فما وقع كتاب السفر لأحد غيرى من أصحابه: لا حرملة ولا غيره. والله أعلم»[1].

والرحلة تبدأ بداية طيبة، إذ تضع القارىء مباشرة أمام الملابسات التى أحاطت بها، وهى بداية تعبر بوضوح عن روح وثاب يطلب العلم ويبذل فى سبيله ما يستطيع، ثم عن روح أشبع بحب الرحلة، ما يكاد يهدأ إلا لينشط. يقول الشافعى: « فارقت مكة ـ وأنا ابن أربع عشرة سنة، ولا نبات بعارضى ـ من الأبطح إلى ذى طوى، وعلى بردان يمانيان، فرأيت ركبا منيخة، وسلمت عليهم فردوا السلام. فوثب إلى شيخ كان فيهم فقال: سألت بمن ألقيت علينا سلامه إلا ما حضرت طعامنا.

وما كنت علمت أنهم أحضروا طعاما. فأجبت مسرعا غير محتشم، فرأيت القوم بدأوا يأخذون بالخمس ويدفعون بالراحة، فأخذت كأخذهم كيلا يستشنع عليهم مأكل. قال: والشيخ ينظر إلى ساعة بعد ساعة، ثم أخذت السقاء وشربت ريا، وحمدت الله وأثنيت عليه. قال: فأقبل على الشيخ وقال: مكى أنت؟ «قلت: مكى» قال: «قرشى أنت؟». قلت: «قرشى». ثم أقبلت عليه وقلت له: يا عم، بم استدللت على ذلك؟فقال: «أما فى الحضر طعام؟ ومن أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه، وذلك فى قريش خصوصا».

قال الشافعى: «فقلت من أين؟» قال: «من يثرب مدينة النبى (صلى الله عليه وسلم). فقلت:« من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله والمفتى بأخبار رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟ فقال« سيد أصبح: مالك بن أنس رضى الله عنه».

فقال الشافعى رحمه الله: فقلت: «واشوقاه إلى مالك»... فما كان غير بعيد

---

(٢) نفسه ٢٩

حتى قطروا بعضها إلى بعض، وأركبوني البعير الذى كانوا وعدوني بركوبه. قال الشافعي: فعلوت على ظهره، وأخذ القوم فى السير، وأخذت أنا فى الدرس، فختمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة: ختمة بالليل، وختمة بالنهار، ودخلت المدينة فى اليوم الثامن بعد صلاة العصر»[1].

فى النص شخص الشافعى واضح المعالم جليها، وإن كان أوضح تلك المعالم شعوره بالاعتزاز بنفسه، وتقديره لها باعتبارها منتمية لطبقة العلماء. وليس ذلك غريبا على صبى نشأ نشأة مرفهة، ومحوطة بكل مظاهر العناية، يعضدها نسب قرشى يفخر به الشافعى أينما حل. والصفة الثانية البارزة ذكاء الشافعى على المستويين: النظرى والعملى، فقد كان يتمتع بذاكرة قوية للغاية أكسبته احترام الآخرين وإعجابهم، كما كان يتمتع بسرعة بديهة وحضور ذهن كثيرا ما رفعا من شأنه فى مجالس العلم. وكانت النتيجة العملية لذلك كله أن عرض عليه الخليفة هارون الرشيد تقلد منصب القضاء، فرفض مفضلا أن يسيح فى طلب العلم على أن يسكن فى طلب الجاه.

وهو مع ذلك مرهف الحس، طاف بأزقة الكوفة، فرأى «أبوابا واسعة ودهاليز منقوشة بالذهب والفضة، فذكرت ضيق أهل الحجاز وما هم فيه، وقلت: «أهل العراق ينقشون بيوتهم بالذهب والفضة، وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى! ثم أقبل علىّ محمد بن الحسن وأنا فى بكائى»[2].

وفى موضع آخر: «أمر ـ الخليفة هارون الرشيد ـ لى بألف دينار، فما برحت من مقامى حتى قبضتها. ثم سألنى بعض الغلمان والحشم أن أصلهم من صلتى، فلم تسع المروءة ـ إذ كنت مسئولا ـ إلا أن قاسمتهم مما أنعم الله علىّ به، فخرج لى قسم كأقسامهم، وعدت إلى المسجد الذى كنت فيه ليلتى»[3].

والإشارة السابقة إلى كرمه دعمتها إشارتان أخريان، ففى الأولى «قبضت الأربعين ألفا، وخرجت من مدينة «حران» وبين يدى أحمال الدنانير والدراهم،

---

(١) رحلة الإمام الشافعى.

(٢) رحلة الإمام الشافعى، ص١.

(٣) السابق ٢٣

يلقانى الرجال وأصحاب الحديث، فمازلت أجيز كل إنسان منهم على قدر ما قسم لى ومعرفته، حتى دخلت مدينة الرملة وليس معى إلا عشرة دنانير»[1].

ويبدو حرص الشافعى على أن تكون رحلته طريفة فى تزويدها بكثير من الدقائق التى قد لا يلتفت كثيرون إلى أهمية تدوينها. إنها دقائق تكسب الرحلة شيئا من خفة الروح والواقعية. وهذه الدقائق هى التى تساعد على رسم صورة صادقة لعصرها، يقول الشافعى: «عندما أزمعت السفر، زودنى مالك بصاع من أقط، وصاع من شعير، وصاع من تمر، وسقاء فيه ماء ـ واكترى لى بأربعة دنانير، ودفع إلى باقى الدنانير، وودعنى، وانصرف»[2].

ويتصل بهذا النهج حكايتان طريفتان، أحسن الشافعى نقلهما: الأولى حدثت فى الكوفة، والثانية فى حران، فعندما وصل إلى الكوفة اتجه إلى المسجد «بعد صلاة العصر، وصليت العصر. فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلاما قد دخل المسجد، فصلى العصر، فما أحسن أن يصلى. فقمت ناصحا لها مشفقا، فقلت له: أحسن صلاتك، لا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار. فقال: أنا أظنك من أهل الحجاز، فيكم الغلظة والجفاء، وليس فيكم رأفة أهل العراق، وأنا أصلى هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدى محمد بن الحسن وأبى يوسف، فما عابا على صلاتى قط. وخرج معجبا ينفض رداءه فى وجهى»[3].

وفى طريق عودته إلى المدينة دخل «حران» يوم الجمعة، «فذكرت فضل الغسل وما جاء فيه، فقصدت إلى الحمام. فلما سكبت الماء على رأسى رأيت شعر رأسى شعثا، فقلت: أحيى سنة فى سنة. فدعوت المزين، فلما بدأ فى رأسى وأخذ القليل من شعرى دخل قوم من رؤساء البلد، فسارع إلى خدمتهم وتركنى. فلما قضوا ما أرادوا منه عاد إلى ما أردته، وخرجت من الحمام، فدفعت إليه أكثر ما كان معى من الدنانير، وقلت له: خذ هذه، وإذا وقف بك

---

(١) رحلة الإمام الشافعى ٢٣ .

(٢) السابق ١٢.

(٣) نفسه ١٣.

غريب فلا تحقره»[1].

والرحلة تتسم بطابع الالتزام، فالخلط الزمانى والمكانى منتفيان، والاستطراد لامكان له، وقد مهد ذلك الالتزام للتمسك ببنية تقليدية، ذات أربع وحدات:

١ ـ مقدمة قصيرة للغاية.

٢ ـ رحلة ذهاب، وهدفها المبدئى الوصول للمدينة المنورة، ولكن مالبث هذا الهدف أن اتسع زمانا ومكانا.

٣ ـ وصف المناطق التى زارها وصفا ذاتيا من خلال تجاربه الشخصية.

٤ ـ رحلة العودة والخاتمة.

وليس الالتزام بتلك البنية عجزا عن الابتكار أو الاختراع؛ فالشكل الخارجى لا يحدد قيمة الرحلة بمفرده، إنما يتحكم فى ذلك الوحدات الصغيرة، والروح السائدة فيها.

وقد اعتمد الإمام الشافعى فى حكايته لتفاصيل رحلته على الذاكرة، وليس ثمة ما يحول دون ذلك فى حال كون الرحال قوى الذاكرة. وقد أملاها فى مطالع القرن الثالث الهجرى على تلميذه الربيع بن سليمان الجيزى، ومن ثم رواها تلميذه لغيره.

ولأن الإمام الشافعى عالم فذ، فقد كان أمر تمكنه من أدواته الفنية مفروغا منه؛ ولذا فإن الرحلة ـ التى وصلتنا بألفاظه ـ لا يبين فيها خلل أو تفاوت، بل يبدو أسلوبها منطقيا متلائما مع طبيعتها، ينم عن روح صاحبها المتدفقة رقة وعذوبة، وفخرا واعتزازا وذكاء لماحا، وخبرة تفوق - بلا شك ـ المرحلة السنية التى تمت فيها الرحلة. وطبيعى بعد ذلك أن يكون الأسلوب متميزا، مليئا بالتعبيرات الطريفة التى تقف دليلا على تمكنه من لغته، وتصرفه فيها، يقول ـ مثلا ـ «وجلس كل واحد منا فى مصلاه يسبح الله، إلى أن طلعت الشمس على رءوس الجبال كالعمائم على رءوس الرجال»[1]. وقوله: «لو سألتنى يا

(١) رحلة الإمام الشافعى ٢٨ ـ ٢٩

أمير المؤمنين، أن أفتح باب القضاء بالغداة وأغلقه بالعشى ـ بنعمتك هذه ـ ما فعلت ذلك أبدا» (١٩) وقوله: «فلما وصلت إلى الحرم، خرجت العجوز ـ رحمها الله تعالى ـ ونسوة معها، فلقيتنى وضمتنى إلى صدرها، وضمتنى عجوز كنت آلفها وأسميها خالتى... وقالت لى: هيهات، تخرج من مكة بالأمس فقيرا لا مال لك، وتعود إليها مثريا، مفتخرا على ؟!» (٢٨).

وحرصا على إضفاء الحيوية على الرحلة أمدها الإمام الشافعى بمواقف حوارية: طويلة حينا، وقصيرة أحيانا، ترك فيها الباب لأطرافها لتعبر عن ذواتها، دونما تدخل أو تحيز أو مصادرة.

وسواء أخرجت الرحلة فى طلب العلم، وانعكس ذلك فيها، أو لم ينعكس، فالمؤكد أنها كانت على مستوى المسئولية الحضارية، فقدمت نموذجا يمكن احتذاؤه. ولو تعهد نموذج كهذا وطور لوفر على أدب الرحلة وقتا كبيرا أضاعه فى البحث عن هوية.

* * *

-٦-

إن المحدثين قد أسهموا بنصيب وافر فى تثبيت الرحلة كأساس علمى ضرورى، ولم يقتصر دورهم على هذا فحسب، بل أسهموا فى إنضاج «أدب الرحلة» بإنتاج نماذج طبية منه. وكان الدافع لإنتاجها رغبتهم فى بيان مدى ما كانوا يعانون فى سبيل جمع الحديث الشريف.

ثمة نموذج لهذا الإنتاج يمكن أن يعد مثالا، يحكى قصة رحلة قام بها الإمام الرازى، وهى تمضى على النحو التالى:

«لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفرى؛ صرنا إلى الجار (مدينة على ساحل البحر الأحمر) وركبنا البحر، وكنا ثلاثة أنفس: أبو زهير المرور وذى شيخ، وآخر نيسابورى. فركبنا البحر وكانت الريح فى وجوهنا، فبقينا فى البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفنى ما كان معنا من الزاد، وبقيت بقية، فخرجنا إلى البر، فجعلنا نمشى أياما على البر حتى فنى ما كان معنا من الزاد والماء، فمشينا يوما وليلة لم يأكل أحد منا شيئا ولا شربنا، واليوم الثانى كمثله، واليوم الثالث. كل يوم نمشى إلى الليل، فإذا جاء المساء صلينا وألقينا بأنفسنا حيث كنا، وقد ضعفت أبداننا من الجوع والعطش والعياء، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشى على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ مغشيا عليه، فجئنا نحركه وهو لا يعقل، فتركناه ومشينا ـ أنا وصاحبى النيسابورى ـ قدر فرسخ أو فرسخين، فضعفت وسقطت مغشيا على، ومضى صاحبى وتركنى، فلم يزل هو يمشى إذ أبصر من بعيد قوما قد قربوا سفينتهم من البر، ونزلوا على بئر موسى (صلى الله عليه وسلم) فلما عاينهم لوح بثوبه إليهم فجاءوه معهم الماء فى إداوة، فسقوه وأخذوا بيده.

فقال لهم: الحقوا رفيقين لى قد ألقوا بأنفسهم (هكذا) مغشيا عليهم، فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهى،و ففتحت عينى فقلت: «اسقنى» فصب من الماء فى ركوة أو مشربة شيئا يسيرا، فشربت ورجعت إلى نفسى. ولم يرونى ذلك القدر، فقلت: «اسقنى». فسقانى شيئا يسيرا. وأخذ بيدى، فقلت:

ورائى شيخ ملقى، قال: «قد ذهب إلى ذاك جماعة، فأخذ بيدى، وأنا أمشى أجر رجلى، ويسقينى شيئا بعد شيء، حتى إذا بلغت إلى عند سفينتهم، وأتوا برفيقى الثالث الشيخ، وأحسنوا إلينا أهل السفينة فبقينا أياما حتى رجعت إلينا أنفسنا.

ثم كتبوا لنا كتابا إلى مدينة يقال لها «راية» إلى واليهم وزودونا من الكعك والسويق والماء. فلم نزل نمشى حتى نفذ ما كان معنا من الماء والسويق والكعك، فجعلنا نمشى جياعا وعطاشا على شط البحر، حتى وقعنا إلى سلحفاة قد رمى بها البحر مثل الترس، فعمدنا إلى حجر كبير، فضربنا على ظهر السلحفاة فانفلق ظهرها، وإذا فيها مثل صفرة البيض، فأخذنا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحساه، حتى سكن عنا الجوع والعطش.

ثم مررنا وتحملنا حتى دخلنا مدينة الراية، وأوصلنا الكتاب إلى عاملهم، فأنزلنا فى داره، وأحسن إلينا، وكان يقدم إلينا كل يوم القرع، ويقول لخادمة: «هاتى لهم باليقطين المبارك» ،فيقدم إلينا من ذاك اليقطين مع الخبز أياما. فقال واحد منا بالفارسية «لا تدعوا باللحم المشئوم». وجعل يسمع الرجل صاحب الدار. فقال: «أنا أحسن بالفارسية؛ فإن جدتى كانت هروية» فأتانا بعد ذلك باللحم. ثم خرجنا من هناك، وزودنا إلى أن بلغنا مصر»[1].

النص طريف، يركز على رحلة قام بها ثلاثة من المدينة إلى مصر، استغرقت قرابة الأربعة أشهر، عارضا لما لا قوه من متاعب أثناءها كادت تودى بهم.

ولأنه يحكى حكاية ذاتية، فقد برز فيه شخص الإمام الرازى، الذى حرص على أن يكون رفيقاه فارسيين مثله، كما حرص على ذكر الدقائق والتفاصيل التى ترفع من شأن الرحلة. كما يبدو فيه الالتزام بخط سير محدد، وبفترة زمنية محددة.

فالأصدقاء الثلاثة خرجوا من المدينة المنورة، وقد تزودوا بالماء والزاد، واتجهوا

(١) الرحلة فى طلب الحديث: الخطيب البغدادى تحقيق/ نور الدين عنتر. دار الكتب العلمية. بيروت ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م. ص ٢١٤ ـ ٢١٦

لى «الجار» حيث ركبوا مركبا فى عكس اتجاه الريح، فضلوا فى البحر لمدة ثلاثة أشهر. ثم وصلوا إلى البر بعد أن نفد زادهم، وأوشكوا على الموت، لولا إنقاذ سفينة رست على البر ـ مصادفة ـ لهم، ومن ثم واصلوا الرحلة، ليقعوا فى المأزق نفسه، ولكن عناية الله تحوطهم حتى يصلوا إلى مدينة الراية. ويقضون فترة هنالك، ثم يواصلون السير إلى مصر.

وأثناء ذلك يصف الرازى نفسه بنفسه، فيتابع التغيرات الطارئة عليها مع كل تقلب وتحول، دون أن يرفع من شأنها، أو يحط منه، ودون أن يلجأ إلى خياله يمتطيه فيدعى بطولة زائفة. وليس ثمة ما يمنع أن يعبر عن سروره بحادثة فكهة، تتمثل فى طلبهم اللحم من مضيفهم بحيلة طريفة.

وطبيعى أن تتكون هذه الرحلة القصيرة ـ الكاملة فى آن ـ من وحدات معتادة تتمثل فى المقدمة، ثم الرحلة ومتاعبها، ثم الوصول إلى مصر. وبذلك تكون قد وصلت إلى نهايتها. وطبيعى ـ كذلك ـ أن صاحبها لم يدونها أثناءها؛ فقد كان فى حالة لا تسمح له بذلك وإنما رواها بعد عودته إلى مستقره، ولذلك قدم لها ابنه بقوله: «سمعت أبى يقول». ولعل الظاهرة الواضحة فى هذه الرحلة السهولة المطلقة فى أسلوب الرازى، تلك السهولة التى تصل إلى حد الركاكة أحيانا، ولعل مرد ذلك كونه فارسى الأصل، واحتفاظه بلغته الأصلية مع العربية، مما أدى إلى تأثر كل منهما بالأخرى.

وهذه السهولة ليست فى غير صف الرحال، بل إنها مطلوبة طالما عبرت بصدق عما مر به أثناء رحلته. ولأنها تعبر عن التلقائية التى لا تخفى وراءها حقيقة.

وقد نتج عن هذه السهولة تعبيرات صادقة طريفة مثل: «كانت الريح في وجوهنا»، و«لما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشى على قدر طاقتنا» و«فأخذ بيدى وأنا أمشى أجرُّ رجلى» و«أحسنوا إلينا أهل السفينة، فبقينا أياما حتى رجعت إلينا أنفسنا» ولعل الموقفين الحواريين فى هذا النص القصير يضفيان عليه كثيرا من الحيوية ويقربانه من «أدب الرحلة».

لقد وصف الإمام الحاكم أهل الحديث وصفا يكاد ينطبق على الإمام الرازى وصاحبيه؛ فهم «قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم فى الدمن والأوطان، وتنعموا بالبؤس فى الأسفار مع مساكنة أهل العلم والأخبار، وقنعوا عند جمع الحديث والآثار بوجود الكسر والأطمار. قد رفضوا الإلحاد الذى تتوق إليه النفوس الشهوانية، وتوابع ذلك من البدع والأهواء والمقاييس والآراء والزيغ. جعلوا المساجد بيوتهم، والأساطين تكاهم وبواريها فرشهم»[1].

(١) الرحلة فى طلب الحديث ٢٢٠-٢٢١.

-٧-

فى عام (٢٨٨هـ= ٩٠٠م) تخلص الرحال العربى «هارون بن يحيى» من أسره، واستغل فرصة وجوده فى أوربا فزار عدة بلاد فيها، ثم قدم وصفا مفصلا للقسطنطينية -حيث كان أسره- ووصفا مختصرا لهذه البلاد.

والخدمة الجليلة التى قدمها ابن رسته تمثلت فى حفظه قطعة كبيرة من وصفه، وكان هارون بن يحيى قد وقع فى أيدى قراصنة من أهل «أطالية» بآسيا الصغرى، وذلك قرب «عسقلان» بفلسطين فساقوه بحرا وبرا إلى القسطنطينية، وامتدت إقامته بعض الوقت زار خلاله «روما» عن طريق «سلانيك» كما زار أيضا أرض الصقالبة والبندقية[١].

وادعى «كراتشكوفسكى» أنه «إذا كان وصفه للقسطنطينية لايخلو من معلومات هامة طريفة تقوم على الملاحظة المباشرة، فإن وصفه لروما -على عكس ذلك- يقتصر على إيراد العجائب، ويمثل رواية نقلية ترتفع إلى مصادر مسيحية شرقية»[٢].

وهارون يحكى ما يدل على وصوله الفعلى إلى روما، فقد لاحظ أن «أهل روما -صغيرهم وكبيرهم - يحلقون لحاهم كلها لايتركون منها شعرة واحدة على أذقانهم، ويحلقون وسط هاماتهم، فسألتهم عن السبب فى حلق لحاهم، وقلت لهم: إن زين الرجال فى اللحى، فما مرادكم من هذا الذى تفعلونه بأنفسكم؟! فقالوا: «إن كل من لم يحلق لحيته ليس نصرانيا خالصا»[٣].

والنص الذى يورده ابن رسته شبه كامل؛ لأن حلقاته متصلة؛ إذ يبدأ بذكر ظروف الأسر وملابساته، والطريق الذى سلكه حتى وصل إلى القسطنطينية، ومن ثم يشرع فى وصف المدينة وصفا مفصلا ويركز على وصف قصر الملك وكنيسته الخاصة، ثم يصف الكنيسة العامة، كما يؤكد على حسن معاملته للأسرى المسلمين.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١/١٣٥.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١/١٣٥.

(٣) الأعلاق النفسية ١٢٩-١٣٠.

فى ثنايا ذلك يذكر بعض العجائب والطلاسم التى لفتت انتباهه، وبعد افتكاكه يواصل سيره محاولا وصف كل البلاد التى يمر بها مشيرا إلى دياناتها وعادات أهلها، إلى أن يصل إلى روما، فيفيض فى وصف كنيستها وبعض عجائبها، ومن ثم يصل إلى فرنسا فبريطانيا التى ليس وراءها عمران - فيما يرى.

ورغم دقة هارون فى الوصف فإن ولعه بالعجائب سيطر عليه، فجعله يتخيل بعض الأحداث الغريبة التى ربما يكون قد سمعها ولم يرها، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على سلامة طوية، بيد أنه قد يرى الشىء الغريب فلا يبهر به، وإنما يبحث عن تفسيره، حدث هذا فى موضعين.

وقد كان هارون من السماحة بمكان؛ فقد أدى حياده إلى وصف هؤلاء الذين زارهم وصفا حسنا، ذاكرا فضائلهم ومتغاضيا عن عيوبهم، ومركزا على أن أسرى المسلمين كانوا يعاملون معاملة حسنة مميزة.

ورسم هارون أكثر من لوحة بدقة، كلوحة قصر الملك، وسباق الخيول فى ساحته، ولوحة كنيسة القصر، ولوحة خروج الملك إلى الكنيسة العامة، وكذا كنيسة روما.

لقد أيقظ هذا الخروج غير المتعمد روح الرحال فى نفس هارون؛ فلم يكتف برؤية القسطنطينية، وإنما شرع فى التجول ليرى ما وسعته الرؤية وما أسعفته قدراته.

ويبدو أن ابن رسته قد اختصر المقدمة التى كتبها هارون فى الأصل، وحكى مجملها من أجل الوصول -بسرعة- إلى وصف القسطنطينية وروما، بيد أن هذا الاختصار لم يقض تماما على تفاصيل رحلة الذهاب التى ذكر بعضها، وكان التركيز على وصف القسطنطينية وروما الغرض الرئيس من التدوين، وقد طغى هذا الغرض على ما سواه؛ فلم يتحدث هارون عن رحلة العودة، وربما يكون ابن رسته قد حذفها لأنها خروج عن موضوعه، وتكرار لما سبق -فيما يظن.

وخصوصية المكان طغت على خصوصية الزمان، فبرز اهتمامه بالمكان، بينما اقتصر اهتمامه بالزمان على ذكر بعض المسافات -الزمنية- بين المدن بالأيام.

والدقة التى يصف بها القصور والكنائس والمدن توحى بأنه قد دون تلك الأوصاف أثناء رحلته فى شكل مذكرات، ثم ضمها مضيفا إليها وصف بعض البلاد التى زارها معتمدا على ذاكرته.

والضمير المستخدم يتراوح بين «الأنا» و«النحن» و«الأنت».

وأسلوب هارون سهل مبسط لاتَعَمُّل فيه ولاتكلف ولاتزيد، وإنما الهدف الأسمى توصيل المعلومات مباشرة.

ولغة الأرقام خير ما يؤدى هذا الغرض، ويبدو أن هارون كان مولعا بالإحصاءات، ولذا فإن كما كبيرا من الأرقام متضمن فى النص.

وهناك بعض الأخطاء -النحوية خاصة- التى ربما عادت للمحقق نفسه.

والجزء الأول الذى يتحدث فيه هارون عن نفسه فى رحلة الذهاب مفعم بالحيوية، وقد انعكس ذلك على الأفعال المستخدمة مثل: خرجنا- مشينا - انتهينا- ركبنا.. إلخ. وهذه الحركة ما تلبث أن تهدأ حين يشرع فى وصف المدن والكنائس.

وقد يحكى هارون بعض المفردات الأجنبية، ليدلل على معرفته بلغات متعددة وعلى واقعية رحلته.

-٨-

تمثل رحلة ابن فضلان -أو رسالته- خطوة طيبة نحو الاستقلال الذاتى لأدب الرحلة العربى عن الجغرافيا؛ فقد كانت بمثابة طفرة كبيرة وثورة على الخلط بينهما.

المعلومات المتوفرة عن ابن فضلان شديدة الندرة، فمن غير المعروف: أين ولد؟ ولامتى ولد؟ ولاكيف نشأ، ولا أين عاش مراحل حياته الأولى؟ ولا أى المناصب تقلد؟ وهل له نتاج أدبى أو علمى سوى رسالته؟ وفى أى الفروع؟

إن علامات استفهام كثيرة تحيط ابن فضلان وحياته؟ ولايعرف عنه سوى أنه: «أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان ثم مولى لأمير المؤمنين، فهو من العجم الموالى لهذا الزمان، والمؤلف -ابن فضلان- فى رسالته يدعونا إلى الاعتقاد بغير ذلك، فينقل إلينا قول ملك الصقالبة يخاطبه -معرضا بأصحابه فى الرحلة: إنما أعرفك أنت، وذلك أن هؤلاء قوم عجم. فهل يريد بذلك أنه عربى اللسان؟ أم عربى الجنس؟ أم أن الملك يجهل أصله فدعاه كذلك؟»[1].

ليس ثمة ما يمنع كون ابن فضلان أعجمى المولد والنسب، عربى المربى والانتماء، وأن تكون هذه النشأة قد هيأت له الإلمام ببعض المعارف السائدة فى عصره، مما أهله للالتحاق بالخدمة فى دار الخلافة والتقلب فى وظائفها المختلفة.

فى عام (٣٠٩هـ= ٩٢١م) صدر مرسوم الخليفة العباسى المقتدر بالله بتكوين سفارة إلى ملك الصقالبة على النحو التالى.

١ - الرسول: سوسن الرّسى (نسبة إلى نهر الرّس)، ولعله كان القائد الفعلى للسفارة.

٢ - قارىء الكتاب، ومُسلِّم الهدايا، والمشرف على الفقهاء والمعلمين: أحمد بن فضلان.

---

(١) رسالة ابن فضلان : تحقيق د/ سامى الدهان. دمشق ١٩٥٩. المقدمة ٩٣.

٣ - غلامان: تكين، وهو غلام ذو أصل تركى، وبارس الحاجب غلام إسماعيل ابن أحمد صاحب خراسان[١].

٤ - حامل الأموال: أحمد بن على بن موسى الخوارزمى الصعلوكى الذى يذكر المسعودى أنه كان أميرا[٢].

٥ - الفقيه والمعلم وعدد من الغلمان، وقد عادوا جميعا إلى بغداد خوفا من مخاطر الطريق.

وصحب هؤلاء «عبدالله بن باشتو» رسول ملك الصقالبة فى طريقه للعودة.

وكان السفير بين الخليفة وملك الصقالبة هو «نذير الخرمى»، والسفير هنا بمعنى الوسيط. وقد تخلف عن السفارة الفقيه والمعلم والغلمان التابعون لهما، ثم تخلف أحمد بن على قهرا، وواصل الرحلة خمسة نفرهم: سوسن الرسى، وأحمد ابن فضلان، وعبدالله بن باشتو، والغلامان: تكين وبارس - إضافة إلى الحاشية المصاحبة لرسول ملك الصقالبة.

والشائع عن ابن فضلان أنه كان فقيها، وهذا الاعتقاد نتج عن خطأ فى الاستدلال من قبل بعض الباحثين الذين تتبعوا حركات وسكنات وأفكار ابن فضلان فى رحلته، بيد أن طبيعة المهمة التى تولاها تدل على أنه كان إداريا فى المقام الأول، خاصة أنه قد أُسند إليه -كما يقول- الإشراف على الفقهاء والمعلمين، وتسليم الهدايا، وقراءة الكتاب. والمهمة الأخيرة تغلب كونه موظفا بديوان الرسائل بدار الخلافة[٣].

وقد أوقع هؤلاء فى الخطأ قيامه بدور الفقيه الذى تخلف عن السفارة خوفا من البرد، وهو دور فرض عليه، وساعد على قيامه به ثقافته المتنوعة والتزامه تعاليم دينه. ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن فضلان كان قادما من «بغداد» عاصمة الخلافة، وكانت بغداد -آنذاك- فى عصرها الذهبى، لذا كان الشعور بالتفوق ملازما له

(١) انظر فى (بارس) المسالك والممالك للإصطخرى ١٦٤.
(٢) مروج الذهب ٣١١/٤.
(٣) رسالة ابن فضلان ٦٨.

ثناء الرحلة، وكان لايفتأ يقارن ما يراه بما رآه فى بغداد، فيرى الفرق شاسعا، ومن ثم كانت معاملته المتعجرفة لملك الصقالبة وغيره ممن قابلهم، وكان كم دهشته كبيرا؛ لأنه لم يكن يظن أن هناك شعوبا متخلفة إلى هذا الحد، وانعكست هذه الدهشة جلية فى نص الرحلة، فجاءت طريفة فى مجملها.

نالت رسالة ابن فضلان شهرة كبيرة فى عصرها والعصور التالية، كما لقيت اهتماما كبيرا فى العصر الحديث، وكان هذا الاهتمام -قديما وحديثا- دليلا على مكانتها السامية.

ذكر ياقوت أن «قصة ابن فضلان وإنفاذ المقتدر له إلى بلغار مدونة معروفة مشهورة بأيدى الناس، رأيت منها عدة نسخ»[1].

واعتمادا على النص المدون للرحلة نقل جغرافيون ورحالة تالون لابن فضلان نصوصا مع الإشارة إلى مصدرها حينا، وإغفال ذلك أحيانا، أو الإشارة إليه بكلمات مبهمة؛ فالإصطخرى نقل عن ابن فضلان كثيرا،[2] وأضاف بعض المعلومات، مما أحدث لبسا فى بعض النسخ، فأضيف إليها نص من نصوص الإصطخرى على أنه لابن فضلان. وقد فطن محقق الرسالة إلى ذلك، فنقل نص ابن فضلان عن ياقوت بعد تخليصه من إضافات الإصطخرى، وذيل به رسالة ابن فضلان. نقل الإصطخرى عن ابن فضلان، ونقل ابن حوقل -بالتالى- عن الإصطخرى، وكذلك نقل المسعودى والبكرى وغيرهم عن ابن فضلان مباشرة، أو «لعلهم نقلوا جميعا عن «الجيهانى» -الوزير السامانى المشهور -وقد ألف كتابه بعد سنة (٣١٠هـ= ٩٢٢م)- أى بعد رجوع ابن فضلان من رحلته، وكتاب «الجيهانى» ضاع ولم يصلنا لنوازن بينه وبين مؤلفنا.. ابن فضلان»[3] ومعروف أن الجيهانى قابل السفارة أثناء ذهابها، وأكرم أعضاءها، فقد تقدم -على حد تعبير ابن فضلان-بأخذ دار لنا، وأقام لنا رجلا يقضى حوائجنا ويزيح عللنا فى كل ما نريده»[4]. ومن الطبيعى أن يقابل ابن فضلان. ولشهرة رسالة ابن فضلان

(١) معجم البلدان ٨٨/١.

(٢) قارن بين المسالك المسمالك ١٣١-١٣٢، ورسالة ابن فضلان ١٢٦، ١٣١.

(٣) رسالة ابن فضلان ٥٥.

(٤) السابق ٧٦.

وطرافتها تناولتها الأيدى بالتعديل والتحريف المتعمد وغير المعتمد حتى إن «بروكلمان» ادعى أن صاحب معجم البلدان نقل عن مختصر لرسالة ابن فضلان[1].

ومع بدايات القرن التاسع عشر الميلادى (الثالث عشر الهجرى) أحسّ المستشرقون بأهمية هذه الرسالة، فمضوا يعنون بها دراسة وتعليقا وترجمة وتحقيقا وجمعا لنصوصها، وكان للروس عناية خاصة بها، حتى زادت البحوث حولها عن العشرين[2].

وكانت خدمة جليلة قدمها للأدب العربى الدكتور سامى الدهان، حين حققها ونشرها لأول مرة فى العالم العربى، فكان عمله إعادة كشف وبعث لها.

واعتمادا على النص المحقق ظهرت إشارات -لادراسات- قليلة فى العربية تشهد بمدى التفريط فى حق هذه الرسالة.

ولعل من نافلة القول التأكيد على أنه لم «يقم أدنى ريب حول صحة نسبة الرسالة إليه -إلى ابن فضلان- وإذا كان البعض قد أبدى ارتيابه من وقت لآخر بشأنها -كما فعل عالم الآثار «اسبتزن» - فإن ذلك يمس فى العادة بعض التفاصيل، ولايثبت على محك النقد الدقيق»[3].

* * *

«ألمش بن يلطوار» ملك الصقالبة سياسى ماهر، رأى الاستعانة بسلطان خليفة المسلمين المعنوى فى مواجهة عدوه ملك الخزر «خاقان الأكبر»، فأعلن إسلامه، وأرسل سفارة بقيادة «عبدالله بن باشتو» حاملا كتابا إلى الخليفة، وكان الذى تعهد بالتوسط لدى الخليفة هو «نذير الخرمى».

وصل الكتاب إلى الخليفة، ورأى الاستجابة لنداء ملك الصقالبة، فأرسل -إليه- سفارة بقيادة «سوسن الرسى» مولى «نذير الخرمى» وكان ابن فضلان أحد أعضائها

(١) تاريخ الأدب العربى «بروكلمان» ترجمة د/رمضان عبد التواب. دار المعارف ٢٤٢/٥.
(٢) انظر: رسالة ابن فضلان ٤٤-٤٩، وتاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٨٦/١ - ١٨٧.
(٣) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٨٧/١.

البارزين، فقد كلف بقراءة كتاب الخليفة، وكتاب وزيره «حامد بن العباس» وكتاب «نذير الخرمى» كما كلف بتسليم الهدايا، والإشراف على الفقهاء والمعلمين والغلمان.

استغرقت الرحلة أحد عشر شهرا ذهابا، ومثلها -تقريبا- عودة، وتوسط هاتين الفترتين فترة ثبات واستقرار استغرقت ستة أشهر.

وفترة بهذه الطول الزمانى -والاتساع المكانى- مر فيها ابن فضلان بمراحل ومشاهد ومواقف كثيرة وغنية، خاصة أنها تمت بين أناس مختلفين فى اللغة والعادات والتقاليد، وربما العقيدة أيضا، ولأماكن تختلف فى طبيعتها عن بلاده التى كان يعيش فيها.

مالا يعرفه مواطنوه عن هذه البلاد كثير يستحق التدوين والتنويه، وإذا دون فإنه يحتاج إلى وقت وجهد يسترجع فيهما -ثم يدون- ما مربه، وهنا يضطر الرحال للانتقاء والاختيار. ولابد -حينئذ- أن يقع فى حيرة: فأى المواقف يثبت؟ وأيها يغفل؟ الحيرة مبعثها أنه يتوجه بكتاباته إلى جمهور -لا إلى خاصة- وهو مطالب بإرضاء ذوق الجمهور، وليس معنى إرضاء الذوق تملقه، بل محاولة الموازنة بين ما يرضى الجمهور ويريده، وبين مالا يرضيه ولكن لابد منه. وله أن يتوسل -فى تحقيق هدفه- بالحرية المتاحة فى استخدام الأدوات والأنواع الأدبية المختلفة وذوق الرحال هو المتحكم فيما يختار وما يغفل.. ومن ثم ما يدون ومالا يدون.

شغل ابن فضلان بالمذاهب السياسية والاجتماعية والعقدية مرتبطة بالزمان والمكان: من الطبيعى أن يهتم بأمور السياسة؛ لأنه فى مهمة سياسية، وطبيعى اهتمامه بأمر العقيدة عند من يزور، ولكن هذه الأمور لاتذكر إلا مرتبطة بالنسق الاجتماعي الذى أفرزها، لذا فهى أقرب للأعراف الاجتماعية منها للعقائد الفكرية المنظمة.

الحديث عن السياسة -عند ابن فضلان- غير مباشر، ولكنه هام لعصره وعصرنا كليهما:

أما أهميته لعصره فلكونه يستكمل صورة الكرة الأرضية، خاصة فى هذا المكان

المجهول، لذا فإن وصف الأتراك والصقالبة والروس والخزر -وصف معاينة- يكتسي أهمية كبرى يحسها مخططو وواضعو سياسات الخلافة الإسلامية آنذاك. وفي هذا الإطار يمكن تفسير ميل بعض الباحثين لكون رسالة ابن فضلان -في الأصل- تقريرا رفعه للخليفة.

أما أهميته لعصرنا فتتمثل في إزاحة الستار عن تلك الفترة المجهولة من تاريخ البقاع التي زارها، ووصفها وصفا واقعيا يكاد يكون المصدر الوحيد الموثوق به لتأريخ هذه الفترة تأريخا شاملا.

استأثر البعد الاجتماعي بالجزء الأكبر من اهتمام ابن فضلان الذي لم ينس -للحظة ـ أنه إنسان، وهو- مهتما بهذا البعد- يتفاعل معه تفاعلا يكاد يكون ذوبانا، وهو ـ كذلك -لايركز عدساته على الطبقة العالية فحسب، وإنما يستهويه أولئك البسطاء العاديون، وقد كان هذا النحو سببا في صدق تصويره للواقع إلى حد بعيد. لقد ضم معرضه -المتمثل في رسالته- صورا حية لواقع أحسه.

هو لايقف من الواقع موقف مصور يكتفي بالحكاية الآلية، إنه يضفي لمسات خاصة تكسبه مذاقا جديدا؛ إذ كل موقف اجتماعي يقابله رد فعل: إنكار.. استفهام.. موافقة.. سخرية.. دون أن يصدر حكما أو تقويما يمكن اعتباره محاولة لتشكيل ضمير القارئ. إذا وجد أفراد قبيلة «الباشغرد» يتخذون من رمز بعينه تمثالاً إلهاً، طلب من الترجمان الاستفسار عن المغزى.. وإذا رآهم يعبدون «الكراكي» ألح في السؤال حتى يتعرف السبب. وإذا رأى نظام ملك الصقالبة أثناء الطعام وافقه عليه موافقة ضمنية.. إنه سيأكل حتى الشبع، وله بعد ذلك أن يحمل ما تبقى على مائدته إلى منزله. ورأى الترك -كلهم ـ ينتفون لحاهم ويتركون أسبلتهم، فربما «رأيت الشيخ الهرم منهم، وقد نتف لحيته وترك شيئا منها تحت ذقنه وعليه البوستين -فإذا رآه إنسان من بعيد لم يشك أنه تيس»[1] . إنها وجهة طريفة في نقدهم والسخرية منهم، تلك السخرية التي تزيد عند وصفه لرؤسائهم البلهاء الذين

---

(١) رسالة ابن فضلان ١٠٠.

يتحولون من رأى إلى نقيضه -فى لحظة- مقابل هدايا ملونة أو غريبة. وثمة إشارات صريحة خارجة -أحيانا- عن الذوق، وهى ظاهرة انفرد بها ابن فضلان فلم يتعرض لمثلها سابقوه ولاحقوه إلا فيما ندر. ظاهر الأمر أنه يرويها ليستنكرها، والواقع يؤكد أنه يخاطب جمهورا معينا يريده متجاوبا معه، منجذبا إليه فى حالة انبهار وترقب، لذا فقد طعم رسالته بهذه الاشارات حتى تجد القبول والاهتمام. لكن اللافت أنها موظفة توظيفا فنيا جيدا، بحيث يبين خلل بحذفها، ولايتولد شعور بأنها نغمة نشاز مقحمة.

للرحال أن ينقل ماشاء شرط الاتساق الهيكلى للرحلة، فلايكون نتوءا أو بروزا يذهب بروعة البناء وبهائه.

لامجال لمحاكمة الرحال -ها هنا- محاكمة أخلاقية طالما التزم قيما ارتضاها. أما إذا تأكد أنه يقصد إلى الإثارة لذاتها فالتهمة جاهزة، وتقديمه للمحاكمة وارد، ولهيئة المحكمة أن تستمع لدفاعه وتبريره لسلوكه، ثم تحكم بما يقتنع به ضميرها.

الزعم بأن ابن فضلان كان فقيها لايسنده دليل معتبر، والأقرب إلى الصواب أنه كان موظفا ديوانيا. واللافت أن شعوره الدينى فياض، بيد أن هذا ليس مبررا لاعتباره فقيها. وقد جرت هذه المشاعر الفياضة إلى التورط فى بعض المأزق حين تعامل مع الأمور بمنطق العاطفة دون العقل، فأوحى بأن كل ما يرويه حقائق، وماشك فيه نسبه لقائله، أو ركب -قبل روايته- مطية الكذب «زعموا».

لايُطلب من ابن فضلان -أو غيره- أن يكون صادقا صدقا مطلقا، فالصدق المطلق وهم ،المطلوب من ابن فضلان -أو غيره- صدقه نسبيا.. أن يعتقد فى صدق ما يقول، فقد تكون حالته النفسية -فى موقف معين- مؤهلة لتقبل بعض مالا يؤيده الواقع، وهنا يجب ألا يحاسب بمقياس الصواب والخطأ، وتفهم الموقف الذى روى فيه واقعته مطلوب، لكن ليس مقبولا أن يصل صدق وتصديق الرحال إلى حد السذاجة.

حاول ابن فضلان أن يكون صادقا، ولكن عاطفته غلبته، فأصدر أحكاما دون

بيان التهم الموجهة لمن حوكموا، فالغزية -عنده- كالحمير الضالة: لايدينون لله بدين، ولايرجعون إلى عقل، ولايعبدون شيئا، بل يسمون كبراءهم أربابا[1] ولاتستر المرأة -منهم- شيئا من بدنها عن أحد من الناس. وتصديقا لهذا يحكى حادثة مبالغا فيها[2].

وثمة حكاية أخرى تشوبها روح المبالغة والطرافة فى آن، ذلك أنه لما كان من غد لقينا رجل واحد من الأتراك، دميم الخلقة، رث الهيئة، قميىء المنظر، خسيس المَخبر، وقد أخذنا مطر شديد، فقال: «قفوا، فوقفت القافلة بأسرها - وهى نحو ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل- ثم قال: «ليس يجوز منكم أحد»، فوقفنا طاعة لأمره فقلنا له: «نحن أصدقاء كوذركين»، فأقبل يضحك ويقول: «من كوذركين؟! أنا أخرى على لحية كوذركين». ثم قال: «بكند».. يعنى: الخبز بلغة خوارزم -فدفعت إليه أقراصا، فأخذها وقال: مرُّوا فقد رحمتكم»[3].

وهذه الحكاية -على قصرها- مليئة بالدلالات:

١ - فهى ليست صعبة التصديق، فمسرحها أرض معادية غريبة، وثمة خوف من أن يكون الرجل رأس حربة وله أتباع، أو أن يجر التعرض له متاعب ليست فى الحسبان.

٢ - والسفارة كانت ضمن قافلة كبيرة، فهل كانت القافلة -كلها- تابعة للسفارة؟ أم هى من قوافل التجارة التى انضمت إليها السفارة؟ الفرض الثانى أقرب للتصديق.

٤ - ودور ابن فضلان البارز، والذى يحاول تضخيمه دوما، يظهر فى هذه الحكاية؛ فقد أنقذ القافلة. وهذا الموقف وأشباهه أحدث لبسا لدى بعض الباحثين، فاعتبروا ابن فضلان قائد السفارة، بينما يعترف ابن فضلان نفسه أن قائدها «سوسن الرسى».

---

(١) رسالة ابن فضلان ٩٢.

(٢) نفسه ٩٢.

(٣) نفسه ٩٨ ـ ٩٩.

ابن فضلان إنسان صادق، وكذلك هو رحال صادق، نقل ما شاهد دون محاولة للكذب، ولكنه لم يستطع مقاومة الرغبة الملحة فى المبالغة، ولكنها -على أى حال- مبالغة مقبولة لاتشكل قاعدة ثابتة.

الرحلة واقعية، تحدث فى زمان ومكان محددين، ويزيد هذه الواقعية ذكر بعض التفاصيل الدقيقة كاسم الدليل فى بلاد الترك «قلواس»، ومجال الخيال ضيق، وإذا استخدم الرحال الخيال فلرغبة فى ملء فراغ إسقاطات الذاكرة؛ ولأن ذاكرة ابن فضلان قوية يبدو الخيال كما لو كان معدوما.

وطبيعة الرحلة القائمة على الحركة الدائبة السريعة لم تتح الفرصة لابن فضلان لالتقاط أنفاسه فنيا، لذا جاءت مواقفه -فى الغالب- إشارات وتلميحات سريعة، ولكنها -رغم ذلك- دالة؛ فلم يطل توقف ابن فضلان عند موقف بعينه -ولم يحاول رسم لوحات كاملة، بل اكتفى بأجزاء منها تاركا فراغات تضمن المشاركة الإيجابية للقارىء بإعماله فكره. إنه يريد من قارئه التجاوب معه ومتابعة كل تحركاته.

عندما يريد رسم لوحة كاملة فإنه لايرسمها دفعة واحدة، إنما يقسمها إلى لوحات صغيرة طريفة لها دلالتها حين انفرادها، فإذا ضمت جميعا تكونت لوحة كاملة ذات دلالة جديدة حاوية لكل الدلالات منفردة. وخير مثال لذلك لوحة البرد التي رسمها أثناء إقامته بالجرجانية[1]، فالجزئيات طريفة، فإذا جمعت لتكون «كلاً» أصبحت متعددة الجوانب غنية بالمعانى.

لايكسر ابن فضلان قاعدة الرشاقة الوصفية تلك إلا فى حالة واحدة فقط، ذلك عندما يصف عادات الروسية فى دفن الميت. استغرق هذا الوصف حوالى عشر صفحات من الرسالة، وهو أمر خارج عن عادة ابن فضلان، لذا فقد جاء وصفه دقيقا إلى درجة مكنت الرسام الروسى «هنرى سميرادسكى» من رسم لوحة «تزين اليوم أزهى متاحف الروس فى «لينينجراد» رفعت اسم ابن فضلان إلى مراتب الخلود

(١) رسالة ابن فضلان ٨٣ - ٨٧.

والشهرة، وأكسبت رسالته سمعة عالمية»[1].

تعمق ابن فضلان فى وصف هذا المشهد، ولكن وصفه كان خارجيا، فلم يكن عنصرا فاعلا فيه إلا فى لمحات قليلة.

وإذا كان سلبيا فى المشهد السابق فإنه إيجابى فى أغلب المشاهد الأخرى، وتلك الإيجابية صفة هامة يجب توافرها فى كل الرحالة.

لم يكن ابن فضلان ينتظر وقوع الأحداث ليصفها، وإنما كان يتحرك كى يصنع الحدث أو يشارك فيه، ثم يصفه. وإذا كان رأيه مخالفا لغيره -حتى لو كان ملكا- فإنه لايتوانى عن إعلانه، وإذا سمع بشيء تحقق منه بنفسه.

ومن مظاهر هذه الإيجابية أنه رأى وسمع، واستمتع بما رأى، وما سمع، ولم يكتف بذلك، فأمتعنا وعلمنا حين سجل ذلك كله، بينما اكتفى غيره بما رأى أو سمع، ولم ينقله إلى غيره، لأنه خامل فى ذاته، لايرى فائدة لما فعل.

فى بعض المواقف تتحول هذه الإيجابية إلى سلب بيِّن؛ فإذا سأله أحد الأتراك: أَلربّنا -عز وجل- امرأة؟ استعظم ذلك وسبح الله واستغفره، بدلا من شرح عقيدته الإسلامية الواضحة[2].

وإذا تعرض لخدعة -شارك فيها رفاقه- تقبلها، واكتفى بالتحذير من مغبتها[3]. وإذا سمع أصواتا شديدة وهمهمة عالية -فى الجو- أقبل على التضرع والدعاء[4]. إن الأمور العقدية الغريبة التى شاهدها ابن فضلان كانت تحتاج إلى تفسير، فلم يتوان عن استجلاء حقيقتها، ولذا فإن عقائد القبائل البادية لم تكن لتعرف وتصبح أساسا لدراسات حديثة لولا هذا النشاط الإيجابى[5].

---

(١) السابق ٣٣.

(٢) رسالة ابن فضلان ٩٣.

(٣) السابق ٨٨.

(٤) نفسه ١٢٣.

(٥) حول هذه الدراسات، انظر: رسالة ابن فضلان فى وصف رحلته ـ فوزى العنتيل، تراث الإنسانية ـ المجلد الثامن، ١١٣ ـ ١٣٦

استقر فى ذهن العرب أن كل من يسافر أو يرحل يرى من بديع صنع الله فى كونه ما يعجز عن وصفه الوصافون؛ لذا فإن مقياس نجاح الرحلة يتمثل فى حجم الغرائب والعجائب التى تقدمها. ترتب على ذلك أن أصبح الكذب مبررا فنيا، وتهافت الرحالة على تقديم هذا الغريب العجيب، فأفردوا له فصولا خاصة مميزة فى أعمالهم.

مفهوم العجائب نسبى، فما يكون عجيبا غريبا عند شعب قد لايكون كذلك عند غيره، بل إن هذا يصدق على مستوى الفرد، وما يكون عجيبا عند شعب فى زمن معين قد لايكون كذلك عند الشعب نفسه فى زمن آخر.. وهكذا.

عجائب ابن فضلان تنقسم قسمين:

١ - ما كان عجيبا بالنسبة إليه وإلى شعبه.

٢ - ما هو عجيب فى كل مكان وزمان (وقد يسمى ذلك غريبا).

العجائب التى رآها ابن فضلان فى رحلة الذهاب تندرج تحت القسم الأول: لأنها عادات وتقاليد ومعتقدات وظواهر طبيعية غير مألوفة له ولشعبه، ولو لم تكن كذلك لما نقلها. وهذا السلوك يجب أن يكون مفهوما لدى قارىء الرحلات حتى لايسىء فهم ما كتب.

ويبدو أن ابن فضلان تنبه -فجأة- إلى أن القسم الأول لم يبلغ من نفوس قارئيه ما يريد، فقرر أن يتحف قراءه بعجائب مما يندرج تحت القسم الثانى، وهنا يشرع فى تعريض نفسه للتهمة والظنة، حتى المقدمة التى يقدم بها لهذه العجائب يشتم منها رائحة المبالغة، يقول: «ورأيت فى بلده- الملك - من العجائب مالا أحصيها كثرة»[1].

ولايضيع وقته فى شرح هذه المقدمة أو تفسيرها نظريا، بل يأتى بمثال تطبيقى، ذلك أن «أول ليلة بتناها فى بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية أفق السماء وقد احمرت احمرارا شديدا، وسمعت فى الجو أصواتا شديدة وهمهمة عالية، فرفعت رأسى فإذا غيم أحمر مثل النار قريب منى، وإذا تلك الهمهمة

(١) رسالة ابن فضلان ١٢٣.

والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب، وإذا فى أيدى الأشباح التى فيه -تشبه الناس- رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضا رجالا ودواب وسلاحا، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة. ففزعنا من ذلك وأقبلنا على التضرع والدعاء وهم يضحكون منا ويتعجبون من فعلنا. قال: وكنا ننظر إلى قطعة تحمل على القطعة فتختلطان ساعة جميعا ثم تفترقان. فمازال الأمر كذلك ساعة من الليل، ثم غابتا فسألنا الملك عن ذلك، فزعم أن أجداده كانوا يقولون: إن هؤلاء من مؤمنى الجن وكفارهم، وهم يقتتلون فى كل عشية، وأنهم ما عدموا هذا منذ كانوا فى كل ليلة»[1].

ويلاحظ على هذا النص ما يلى:

١ - أن ابن فضلان استخدم كل ما يوحى بأن ما يرويه حقيقة، فالزمان محدد بالسنة والشهر واليوم والساعة، ورد الفعل مرصود رصدا ذاتيا، واللوحة مرسومة بدقة مستعينة ببعض الصور البلاغية.

٢ - أنه يستخدم «إذا الفجائية» خمس مرات فى ثنايا سطور لاتتعدى أصابع اليد عدا، واستخدامه لها محاولة لإيهام القارىء بأن ذلك حقيقة عن طريق تصوير الجو النفسى الموحى.

٣ - أن رد فعل ابن فضلان لم يكن فريدا. بل شاركه فيه رفقاؤه وكان رد الفعل -هذا تلقائيا، لجأوا فيه إلى الله تعالى طالبين العفو والمغفرة، مما كان مثيرا لسخرية وضحك وتعجب أهل البلد.

٤ - أن ابن فضلان مارس هوايته فى السؤال عما لايعرف، وأجابه الملك إجابة لم تقنعه، وقدمها بقوله: «زعموا». فهل شك فى اختراع الملك للإجابة؟ أم شك فى الإجابة نفسها؟ بإلقائه هذه الظلال من الشك أراد أن يبرئ نفسه من تهمة الكذب أو المبالغة فى تفسير الظاهرة، ليلقى فى روع القارئ أنها صحيحة فى ذاتها، ولكن تفسيرها غير مقنع.

---

(١) رسالة ابن فضلان ١٣٩.

ثم يشرع فى ذكر بعض عجائب القسم الأول إلى أن يصل إلى إحدى عجائبه الكبرى، عجيبة هذا المخلوق المنتمى إلى «يأجوج ومأجوج»، ورغم أنه لم ير هذا المخلوق الغريب الذى وصل إلى بلاد الملك ولم يكن ينظر إليه صبى إلا مات، ولا حامل إلا طرحت حملها، وكان إن تمكن من إنسان عصره بيده حتى يقتله[1]، فإنه اقتنع بحكاية الملك عنه، خاصة أنه قال له: «إذا أردت أن تنظر إلى عظامه ورأسه مضيت معك حتى تنظر إليه» فقلت: «أنا والله أحب ذلك» فركب معى إلى غيضة فيها شجر عظام، فتقدمنى إلى شجرة سقطت عظامه ورأسه تحتها، فرأيت رأسه مثل القفير الكبير، وإذا أضلاعه مثل عراجين النخل، وكذلك عظم ساقيه وذراعيه، فتعجبت منه وانصرفت[2] ويمكن -هنا- ملاحظة ما يلى:

١ - أن ابن فضلان نقل رواية الملك كما هى.

٢ - أن الملك رأى عدم الاقتناع باديا على وجهه، فأراد أن يثبت له صحة زعمه، وذلك بمعاينة آثار هذا المخلوق.

٣ - أن ابن فضلان أراد أن يقرب صورة بقايا هذا المخلوق إلى أذهان قارئيه؛ فربط بينها وبين شىء مألوف إلى هؤلاء، وهو النخلة بعراجينها، أو القفير الذى يكنز فيه التمر ليصير «عجوة».

٤ - إن رد فعل ابن فضلان كان أن: تعجب وانصرف -وكأنه -بذلك - يدفع إلى الشك فى روايته.

٥ - أن العجب لايقف عند حد وصف هذا المخلوق، بل يتعداه إلى المعلومات المحيطة به وبجنسه.

ومن عجائب هذه البلاد حيوان «الكركَدَن» الذى «إذا رأي الفارس قصده، فإذا كان تحته جواد أمن منه بجهد، وإن لحقه أخذه من ظهر دابته بقرنه، ثم زج به فى الهواء، واستقبله بقرنه، فلايزال كذلك حتى يقتله. ولايعرض للدابة بوجه ولاسبب،

(١) رسالة ابن فضلان ١٣٩ - ١٤٠.
(٢) السابق ١٤٢.

وهم يطلبونه فى الصحراء والغياض».

هدف رحلة ابن فضلان محدد بدقة، ومعروف أنه تحقق بوصوله أرض الصقالبة، رغم أن عددا من الباحثين يرون أن السفارة لم تحقق نتائج إيجابية، بل حققت نتائج سلبية كثيرة. وفى النهاية تبقى الرحلة نصا أدبيا مميزا، ووثيقة غنية تزداد نفاستها بمرور الزمان، ولم يكن ذلك لولا تدوين ابن فضلان لها، ووصولها بعد أكثر من ألف عام.

خط سير الحدث محكوم بواقع لايمكن التصرف فيه، والإطار الموضوعي الذى احتوى على هذا الحدث يمكن -بوسيلة أو بأخرى- التأكد من وجوده. وعى ابن فضلان هذه الحقيقة، وخضع لها خضوعا تاما، فجاءت أحداث رحلته منطقية فى أغلبها.

الخُطة الحدثيَّة -فى الرحلة- موضوعة مسبقا، وهناك ما يُلزم السفارة التزام هذه الخطة: كُتبٌ يجب تسليمها، وهدايا يجب أن تُحمل، أموال يجب أن تؤخذ من مكان لتصل إلى آخر. حركة الحدث محددة سلفا، وأى خروج عليها يعود إلى روح الرحال الحقيقى المتأصلة فى ابن فضلان. ولكن هذه الخطة وذلك التحديد يحويان داخلهما قدرا من المرونة والحرية التى تتيح الفرصة للتعامل مع الظروف والطوارىء التى ليست فى الحسبان؛ لأن الرحلة ستخترق أماكن وبلاد أناسٍ لايعرف عنها إلا القليل.

كل حدث مرتب فى زمانه ومكانه الحقيقيين، ولايمكن تقديمه أو تأخيره إلا إذا كان مُمهِّداً أو معقِّبا على حدث آخر مهم.

ووحدة الحدث واضحة؛ لأنها ترتبط فى النهاية بحدث أكبر هو الحركة، وقد بث ابن فضلان -بإدراكه هذه الحقيقة- الحيوية فى رحلته، بيد أنه لايستطيع -أحيانا- تكييف معلومة هامة ببث هذا الروح فيها، فيضطر لقطع الحدث بهذه المعلومة، ويخفف من هذه العقبات أنها عارضة وليست أساسا. والنهج الذى اتبعه فى تقديم المعرفة نجح فيه إلى حد كبير، فهو يقدم المعلومة فى إطار حدث، فإذا أراد الحديث عن البرد وشدته قال: «ولقد كنت أخرج من الحمام، فإذا دخلت إلى

البيت نظرت إلى لحيتى وهى قطعة واحدة من الثلج، حتى كنت أدنيها من النار. ولقد كنت أنام فى بيت جوف بيت، وقبة لبود تركية، وأنا مدثر بالأكسية والفرى، فربما التصق خدى على المخدة»[1]. وإذا أراد التعريف بسذاجة بعض الصقالبة حكى لنا أنه «أسلم على يدى رجل يقال له» «طالوت» فسميته «عبدالله»، فقال: أريد أن تسمينى باسمك «محمدا»، ففعلت وأسلمت امراته وأمه وأولاده، فسموا كلهم «محمدا»[2].

ووصفه لمشهد عبادة الروس وتقديمهم القرابين لأصنامهم ينطوى على قدر كبير من الفكاهة التى تبين سذاجة هؤلاء[3].

وابن فضلان -كرحال- يظل الرابط المنطقى الأكبر للأحداث، وإذا جاز التعبير فإن الأحداث مثلت الكواكب تدور فى فلك ابن فضلان الذى لايتيح لها فرصة للإفلات.

العقدة -بمفهومها القصصى- لايمكن تحققها فى الرحلة، فالعقدة القصصية وهمية، قد يستطيع القاص إقناع القارىء بها وحلها، وقد لايستطيع. أما عقدة الرحلة فنابعة من واقع محسوس لايمكن التصرف فيه.

تحتوى الرحلة على عقدة، وهى نوعان: عقدة أساس، وعقدة ثانوية. العقدة الأساس تبدأ من لدن التفكير أو التكليف بالرحلة، وتشمل الاستعداد وتوديع الأقارب.. إلى غير ذلك، ثم تدخل مرحلة جدية مع بداية الرحلة، وتأخذ فى التعقد والتشابك كلما مضى الرحال فى طريقه حتى تصل إلى ذروتها ببلوغ الحد الأقصى الذى خطط له الرحال، ويكون الخط البيانى فى صعود دائم، ولكن ما يلبث الرحال أن يفكر فى العودة، وحين يبدؤها ينحدر الخط البيانى حتى يصل إلى نقطة البداية، عندئذ يصل الرحال إلى نقطة الانطلاق، فتحل العقدة. باختصار: تبدأ العقدة بالخروج وتحل بالعودة. أما العقد الفرعية فتتمثل فى كل الصعوبات التى

---

(١) رسالة ابن فضلان ٨٥.
(٢) السابق ١٣٥.
(٣) نفسه ١٥٢- ١٥٤.

تواجه الرحال وتتطلب منه جهدا لحلها، وهذا النوع من العقد كثير.

من حيث النوع الأول يرتكب معظم الرحالة خطأ منهجيا حين يعلنون -إما صراحة وإما رمزا- أنهم يكتبون أو يدونون رحلتهم بعد عودتهم، ومعنى ذلك أن القارىء يطالع الرحلة وهو يعلم أن عقدتها قد حلت فيقل استمتاعه بها. وقد وقع ابن فضلان فى هذا الخطأ المنهجى حين قال فى المقدمة: «فسلمت الهدايا له ولامراته وأولاده وإخوته وقواده، وأدوية كان كتب إلى «نذير» يطلبها»[1]. على هذا فإن عقدة رحلة ابن فضلان الأساسية تصبح غير ذات قيمة.

أما العقد الثانوية -التى تكوّن فى النهاية العقدة الرئيسية- فقد أفاض ابن فضلان فى سردها. ويمكن إحصاء ثمانى عقد ثانوية تعرض فيها لمآزق -تختلف عسرا ويسرا- حاول حلها، وأفلح فى ذلك، إما بسبب التدخل الذاتى منه، أو بحل خارجى. وهذه العقد أكسبت الرحلة نوعا من الحيوية والمتعة.

الزمان والمكان يلعبان دورا بارزا فى الرحلة، فالزمان والمكان المحددان يكسبانها الواقعية التى هى أساس الرحلة.

من حيث الزمان أورد ابن فضلان عددا من الإشارات الزمنية -خاصة فى رحلة الذهاب- ترفع من الثقة فى صحة الرحلة وواقعيتها، فهو يروى حوادث ومشاهدات تؤكد الوقائع التاريخية صحتها. وللزمن دور هام فى تشكيل الحدث، فرحلة الذهاب كانت -فى غالبها- أثناء الشتاء، وكان متوقعا تلوّن الأحداث والشخصيات بهذا البعد، وقد حدث ذلك بالفعل -وعندما يصل إلى أرض الصقالبة يكون الصيف قد حل، وعرّفه أهل البلد -حينئذ- أنه «إذا كان الشتاء عاد الليل فى طول النهار، وعاد النهار فى قصر الليل، حتى إن الرجل منا ليخرج إلى موضع يقال له «أتل» -بيننا وبينه أقل من مسيرة فرسخ- وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة»[2].

---

(١) رسالة ابن فضلان ٦٩.

(٢) السابق ١٢٦ ـ ١٢٧

وفى الصيف تنحل مياه الأنهار، فينزل «الرجال والنساء إلى النهر، فيغتسلون جميعا عراة لايستتر بعضهم من بعض، ولايزنون بوجه ولاسبب»[1].

والمكان محدد بدقة كذلك، فيمكن تتبع خط سير الرحلة على خريطة، وهذا التتبع سيمدنا بحقيقة هامة هى: أنهم اختاروا طريقا متعرجا غير مستقيم أطول من الطريق المعتاد[2].

ثم إن المكان يزداد أهمية لدي الرحال عن غيره من المبدعين، فقد يصف المكان لذاته دون أن يكون مسرحا لحدث، أو مشاركا فى هذا الحدث، وهنا يبرز الطابع المعرفى التعليمى كغرض من أغراض الرحلة. لكن يلاحظ أن ابن فضلان -فى استخدامه للمكان- يجعله مسرحا لأحداثه ومشاركا فيها، لاكما يفعل الرحالة حين يصفون أماكن بعينها وصفا طويلا مملا يستخدم الذراع والشبر.. إلى غير ذلك من وحدات القياس.

كلما كان المكان غريبا جديدا لم يوصف من قبل -كان نصيبه من المشاركة فى الرحلة أكبر وأعظم، وهذا ما حدث مع ابن فضلان، حتي إنه لم يسبقه أحد فى وصف معظم الأماكن التى زارها فى رحلته، وكذا لم يتله أحد فى وصف هذه الأماكن نفسها؛ لذا عدت رسالة ابن فضلان مصدرا -عظيم القيمة- لهذه الأماكن، ينقل عنه لاحق عن سابق عن ابن فضلان.

كى يثبت ابن فضلان أنه وصل إلى هذه الأماكن بالفعل نقل بعض المعلومات الخاصة بها، كنقودها وعاداتها ولغتها، فقد رأى «دراهم خوارزم مزيفة، ورصاصا وزيوفا وصفرا، ويسمون الدراهم «طازجة» ووزنه أربعة دوانيق ونصف. والصير فى منهم يبيع الكعاب والدوامات والدراهم. وهم أوحش الناس كلاما وطبعا، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير. وبها قرية يقال لها «أردكو» أهلها يقال لهم «الكردلية» كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع. وهم يتبرءون من أمير المؤمنين على بن أبى

---

(١) السابق ١٣٤.

(٢) انظر مقال «فوزى العنتيل» السابق.

طالب -رضى الله عنه- فى دبر كل صلاة»[1].

فى أدب الرحلة لامجال للحديث عن شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية، وإنما الحديث عن شخصيات ثابتة وشخصيات عارضة.

والشخصية الثابتة -دائما- شخصية الرحال نفسه، وقد يرافقه بعض الصحاب، لكن لايمكن عدهم شخصيات ثابتة إلا إذا كانت مشاركتهم فى الحدث إيجابية. أما الشخصيات العارضة فهى تلك التى يقابلها الرحال فى جولاته المختلفة. وهى لاتعد كذلك، ولاتدخل فى دائرة البحث إلا إذا كانت إيجابية، حتى لو كانت إيجابيتها لاتستغرق حيزا كبيرا.

فى رحلة ابن فضلان شخصية ثابتة، والثبات -هنا- لايعنى السلبية، وإنما يعنى الحضور الدائم فى كل مراحل الرحلة بحيث تصبح محورا تدور حوله الأحداث، وكذا تصنع الأحداث، وهذه الشخصية الثابتة هى ابن فضلان نفسه.

أماالشخصيات الأخرى التى صاحبته فى الرحلة فإنها لا تتدخل فى الأحداث ولا تظهر على شاشة الرحلة إلا حين يريد ابن فضلان. كان ممكنا عد هذه الشخصيان ثابتة، ولكن لأن دورها تافه لا يستطاع ذلك.

يبرز من بين هذه الشخصيات «تكين» الذى يحظى بقدر من الاهتمام يزيد قليلا على أصحابه، ولكن هذا الاهتمام لا يغير من الدور الهامشى له.

تتلوها شخصيات: عبد الله بن باشتو، وسوسن الرسى ـ الذى كان رئيسا للسفارة، والغلام «بارس»، فهذه الشخصيات تتساوى فى حجم الدور الذى تلعبه.

ثم يلى هؤلاء شخصيات: الوزير الجيهانى، والأمير نصر بن أحمد والأمير محمد ابن عراق الخوارزمى، ثم الفضل بن موسى النصرانى وكيل ابن الفرات، «وكوذركين» و «ينال»و «أترك» و«طرخان» و «إيلغز» قواد الترك، ثم الدليل «قلواس» والترجمان الذى لم يذكر اسمه.

تبقى شخصية واحدة استأثرت باهتمام ابن فضلان، وهى شخصية ملك

---

(١) رسالة ابن فضلان ٨٢ .

الصقالبة، تلك الشخصية التى قدمها فى صورة واضحة، وإن كان رسمها رسما كاريكاتيريا ساخرا فى البداية، ثم طرأ تحول فى نظرته إليها، فرسمها تحوطها مظاهر الاحترام. هذا التغير حكمته عوامل نفسية.

لصفات وخصائص معينة كُلِّف ابن فضلان بالقيام بهذه المهمة الخطيرة، وهذا يعنى أنه سيؤدى عملا رسميا، والعمل الرسمى يبعث ـ فى مثل هذه الظروف ـ على الملل، لشبهة الإجبار وعدم الحرية. كان متوقعا أن يسيطر هذا الملل على ابن فضلان ورفاقه، ولكنه أصابهم وأخطأه. وكلما تقدمت الرحلة سيطرت روح المغامرة على ابن فضلان وخبت عند صحبه. كان لديه الشوق لأن يرى، وأن يسمع، وأن يدون، فكسر ـ بذلك ـ دائرة الملل المفرغة التى كادت تسيطر عليه بسبب العقبات المستمرة التى واجهت السفارة فى مراحلها المختلفة.

نسى ابن فضلان أنه فى مهمة رسمية طوال رحلة الذهاب، وأخذ ينقب عن الجديد والغريب والعجيب. كانت روح الرحال حبيسة صدره، فلما أتيحت لها الفرصة لتنطلق خرجت كالمارد، وأبدعت لأنها وجدت الظروف ملائمة ومواتية. ولولا هذه الروح المغامرة لعاد ـ كما عاد غيره ـ منذ بداية الرحلة، فقد «تأخر ـ عنهم ـ الفقيه والمعلم والغلمان الذين خرجوا ـ معهم ـ من مدينة السلام، فزعا من الدخول إلى ذلك البلد»[1]. الشديد البرد.

وإذا اعترضهم من يعوق سيرهم قال ابن فضلان: «انصرفنا عنه ذلك اليوم ثم عاودنا، ولم نزل نرفق به ونداريه ونقول: هذا أمر أمير المؤمنين، فما وجه المراجعة فيه؟.. حتى أذن لنا»[2].

وإذا أصابهم برد شديد، وأشرفوا على الموت، لم يثنهم ذلك عن مواصلة الرحلة. قال ابن فضلان: «ثم أوغلنا فى بلد الترك لا نلوى على شىء ولا يلقانا أحد، فى برية قفر بغير جبل. فسرنا فيها عشرة أيام ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذى كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف، ونسينا كل ما مر بنا، وأشرفنا على تلف الأنفس»[3].

---

(١) رسالة ابن فضلان ٨٧ (٢) السابق ٨١

(٣) نفسه ٨٩

بل إن ابن فضلان لا يتورع عن استخدام الرشوة ـ تحت اسم الهدية ـ فى سبيل مواصلة السير. قال:«فلما وصلنا إلى الموضع الذى هو فيه (أى قائد تركى) قال: «لا أترككم تجوزون لأن هذا شيىء ما سمعنا به قط، ولا ظننا أنه يكون». فرفقنا به إلى أن رضى بخفتان جرجانى يساوى عشرة دراهم، وشقة ـ باى باف، وأقراص خبز، وكف زبيب، ومائة جوزة. فلما دفعنا هذا إليه سجد لنا»[1].

وحب الرحلة والمغامرة يدفعان ابن فضلان للمرور وسط أراضى «الباشغرد» هؤلاء الذين يصفهم بقوله: «فحذرناهم أشد الحذر، وذلك أنهم شر الترك وأقذرهم وأشدهم إقداما على القتل، يلقى الرجل الرجل فيفرز هامته، ويأخذها، ويتركه»[2].

- وقد ساعد على أداء المهمة أن ابن فضلان كان مؤهلا نفسيا وجسديا للقيام بها.
- ولأن ابن فضلان محب للمهمة التى يقوم بها كان لابد أن ينتج عن ذلك وصف للرحلة يتوافق وهذا الحب، ويكون قوامه قوة الملاحظة، والذكاء فى التقاط الصور والملامح والمعالم، وبخاصة ما يدق منها على النظرة العابرة.

إنه يصف الجرجانية وبردها وآثاره، يقول «فرأينا بلدا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط الثلج فيه إلا ومعه ريح عاصف شديد. وإذا أتحف الرجل ـ من أهله ـ صاحبه، وأراد بره، قال له: «تعال إلى حتى نتحدث فإن عندى نارا طيبة» ـ هذا إذا بالغ فى بره وصلته ـ إلا أن الله تعالى قد لطف بهم فى الحطب وأرخصه عليهم: حمل عجلة من حطب الطاغ بدرهمين من دراهمهم، تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل»[3].

وهذا الربط بين البرد والنار والحطب والعادات الاجتماعية والرحمة الإلهية ذكاء من ابن فضلان. وحديثه عن الأتراك ممتع، رغم أنه يعتمد على لمحات عابرة، فقد: «قال بعضهم ـ وسمعنى أقرأ قرآنا ـ واستحسن القراءة ـ وأقبل يقول للترجمان: قل له: «لا يسكت». وقال هذا الرجل يوما على لسان الترجمان: «قل لهذا العربى: ألربنا ـ عزوجل ـ امرأة؟ فاستعظمت ذلك وسبحت الله واستغفرته، فسبح واستغفر كما فعلت. وكذلك رسم التركى كلما سمع المسلم يسبح ويهلل قال مثله»[4].

(١) نفسه ٩٨.
(٢) رسالة ابن فضلان ١٠٧ ـ ١٠٨
(٣) السابق ٨٣-٨٤.
(٤) نفسه ٩٣.

وهى ملاحظة دقيقة تماثل ملاحظة سابقة، إذ سمع بعض الأتراك «يقولون: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) تقربا بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين، لا اعتقادا بذلك»[1].

ومن مظاهر تلك الدقة هذه الملاحظة المقارنة عن قبائل «البجناك» التركية، إنها أول مرة يمر بديارهم «وإذا هم شديدو السمرة، وإذا هم محلقو اللحى، فقراء، خلاف الغزية، لأنى رأيت من الغزية من يملك عشرة آلاف دابة ومائة ألف رأس من الغنم، وأكثرها ترعى الغنم ما بين الثلوج، تبحث بأظلافها تطلب الحشيش، فإذا لم تجده قضمت الثلج فسمنت غاية السمن، وإذا كان الصيف وأكلت الحشيش هزلت»[2].

وهذه الملاحظات لم تكن لتتأتى لولا اختلاط ابن فضلان بمن يمر بهم، فقد أتاح له هذا الاختلاط فرصة السؤال والاستفسار والنفوذ إلى الحقائق والأسرار، كما أتاح له أن يصف وصفا صحيحا يعتمد عليه.

مر ابن فضلان بقائد تركى ـ اسمه أترك بن القطغان ـ وأهداه هدية عبارة عن «ثياب ، وزبيب، وفلفل،و جاورس. فرأيت امرأته ـ وقد كانت امرأة أبيه ـ وقد أخذت لحما ولبنا وشيئا مما أتحفناه به، وخرجت من البيوت إلى الصحراء فحفرت حفيرة، ودفنت الذى كان معها فيها، وتكلمت بكلام، فقلت للترجمان: ما تقول؟ قال:«تقول: هذه هدية للقطغان أبى أترك أهداها له العرب»[3].. وعندما وصل إلى أرض الصقالبة لم يركن إلى العيش المرفه الرغد بجوار الملك، وإنما انطلق ليعايش الشعب وليخبره، ثم ليصفه فيسعد قراءه فى نهاية المطاف.

وإذا رأى الرحال أن ثمة إحصاءات وبيانات ومعلومات يجب أن تضمن رحلته، فعليه أن يلتزم الدقة حين إيرادها. وقد كان ابن فضلان دقيقا فى وصفه خاصة فيما يتعلق بالزمان والمكان، فقد خرج من بغداد يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة (٣٠٩هـ = ٩٢١م)، وأقام فى «بخارا» ثمانية وعشرين يوما،

---

(١) نفسه ٩٢.
(٢) رسالة ابن فضلان ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣) رسالة ابن فضلان ١٠١ ـ ١٠٢.

ورحل من «الجرجانية» يوم الاثنين لليلتين ـ خلتا من ذى القعدة، فترك رباطا يقال له «زمجان»، ثم رحل فى غده، ونزل بمنزل يقاله له: «جيت»، ثم جاءهم «ثلج مشت فيه الجمال إلى الركب»، وكانت القافلة نحو ثلاثة آلاف دابة، وخمسة آلاف رجل. وهدية أحد قادة الأتراك عبارة عن «خمسين دينارا ـ فيها عدة دنانير مسيبية ـ وثلاثة مثاقيل مسك، وجلود أديم، وثياب مروية، وقطعوا له قرطقين، وخف أديم وثوب ديباج وخمسة أثواب حرير».

والمعركة الجوية بين مؤمنى الجن وكفارهم رآها فى أول ليلة له فى بلاد الصقالبة قبل مغيب الشمس بساعة قياسية. والليل ـ عند أهل «ويسو» ـ أقل من ساعة، ثم تبلغ الدقة مبلغها حين يصف مشهد دفن الزعيم الروسى.

يمكن تقسيم رحلة ابن فضلان إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

يبدأ القسم الأول مع المقدمة القصيرة المهمة التى توضح سبب الرحلة وهدفها، ويلاحظ هنا عدم وجود مقدمات جغرافية خالصة ـ كما فعل رحالون كثيرون ـ مما يؤكد الطابع الأدبى الصرف لرحلة ابن فضلان.

والقسم الثانى يمثل حالة خاصة مر بها ابن فضلان ورفاقه، فقد كانت بداية الرحلة بداية اكتشاف عوالم جديدة لم يتعرضوا لها من قبل، وبداية التعرض لمواقف جديدة فى ظروف مختلفة غير معهودة، ولذا فإن الشعور السائد بينهم جميعا كان القلق، والقلق يمثل الحركة على كافة المستويات: الحركة الذهنية، والحركة النفسية، والحركة الجسدية.

ترتب على هذا أن جاء تصوير هذه المرحلة مواكبا لذلك الشعور، جاء مليئا بالحركة، ومليئا بالخبرات، مليئا بالقلق الذى لم يستطع ابن فضلان إخفاءه، بل نجح فى تصويره ـ بدقة ـ فى عدة مواضع. وبوصول ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة يبدأ القسم الثالث، فقد قوبل ـ وصحبه ـ بحفاوة بالغة أنسته كل ما لاقى فى رحلته الطويلة التى استغرقت أحد عشر شهرا، وبدأ القلق الذى يساوره فى الزوال. ولم يلبث ـ بعد مدة قصيرة ـ أن تأقلم مع الظروف الجديدة، وأورثه هذا التأقلم شعورا بالاستقرار الذهنى والنفسى والجسدى.

شرع ابن فضلان فى التعرف على العالم المحيط به، ولكن النظرة اختلفت قدر الاختلاف بين القلق والاستقرار. أصبح هناك خط فكرى منظم يمكن تتبعه، أصبحت هناك نظرة موضوعية للأمور، وكان من الممكن أن يؤدى هذا لشيىء من الجمود والسلبية، لولا تلك الروح الفكهة التى وشى بها ابن فضلان وصفه لهذا الجزء من رحلته، تلك الروح الناشئة عن شعوره بأنه من أمة متحضرة متقدمة خطب ودها ملك شعب متخلف، ملك ضعيف يستبيح حماه الملوك المجاورون. وكأنه أحس بأن سفارته هذه ستقلب موازين قوى المنطقة، وأنه سفير فوق العادة، ينظر إلى ما حوله من عل. هذه النظرة ـ بتلك الصفة ـ لا تعوق الموضوعية، ولا تقف فى سبيلها حجر عثرة.

حاول ابن فضلان ـ فى هذا القسم ـ الموازنة بين عقله وعاطفته، بينما ـ ولأنه فى ظروفه غير طبيعية ـ طغت عاطفته على عقله فى القسم الثانى، فجاء أفضل ـ فنيا ـ حيث توفرت له عوامل النجاح، ليبسط ابن فضلان فى القسم الأول كل ما يتعلق بالسفارة كفكرة ثم كواقع، وهو نوع من التوثيق فى المعلومات يرفع من شأن الرحلة، ويكسبها قيمة تاريخية وحضارية وأدبية. ولا يعكر من صفو هذه المقدمة إلا تلك القفزة غير المنطقية التى أخبر فيها ـ دون داع ـ أنه قد وصل إلى بلاد الصقالبة، ونفذ ما أسند إليه من مهام، فأفسد متعة منتظرة.

فى القسم الثانى تبدأ الرحلة بداية سريعة يتوالى فيها الحركة والسكون، إلى أن يصل «بخارا» فيضطر لالتقاط أنفاسه، ثم يقص حكاية خدعة تعرض لها، وعندما تصل حكاية الخدعة إلى نقطة حاسمة ومصيرية يتوقف عن السرد ليحشر بعض المعلومات عن دراهمها. ثم يتستأنف سرد قصة الخداع.

ويواصل ابن فضلان الحركة التى ما تلبث أن تتوقف حين يصل إلى «خوارزم» بسبب رفض الأمير السماح بمواصلة السير، وهنا تحدث حركة من نوع آخر تتمثل فى تلك المجادلة التى جرت بين الأمير وأعضاء السفارة، إلى أن وافق ـ بعد لأى ـ على مواصلة الحركة الطبيعية. يستغل ابن فضلان التوقف الطويل فى «الجرجانية» ليتحدث عن البرد والنار، ويلح على شدة هذا البرد الذى لا تفلح معه كل المحاولات باستخدام عدسته فى التقاط صور له من مختلف الزوايا، ولكنه لا يفلح ـ مع ذلك

فى إعادة الدفء إلى حركته رغم استخدام النار.

بعد بيات شتوى طويل أخذ ابن فضلان يستعيد القدرة التدريجية على الحركة شيئا فشيئا. وتبلغ الحركة ذروتها أثناء مرور السفارة فى ديار الأتراك. وتتنوع ما بين حركة ذهنية ونفسية وجسدية ولعل الجزء الخاص بوصف هذه القبائل المتبدية من أفضل أجزاء الرحلة. بوصول ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة تبدأ مرحلة جديدة من الاستقرار يكون لها أثر كبير فى بنية القسم الأخير من الرحلة، فقد التقط عدة صور من هذه البلاد، وساعد على دقة هذه الصور فى التعبير عن الواقع المكانة الخاصة التى تمتع بها هذا المندوب السامى.

فى الصورة الأولى: ينقل ابن فضلان مراسم الاستقبال الرسمى للسفارة.

فى الصورة الثانية: نتعرف على رد فعل الملك بسبب عدم وصول المال المدون فى الكتاب، وما دار حول هذا الموضوع من مواقف.

فى الصورة الثالثة: يعرض بعض العجائب ـ من وجهة نظره ـ التى رآها فى بلاد الصقالبة.

فى الصورة الرابعة: يفصل عادات الصقالبة وعقائدهم.

فى الصورة الخامسة: يصف ذلك المخلوق الغريب الذى اعتقد أنه من «يأجوج ومأجوج».

وفى الصورة السادسة: يذكر ـ بطريق غير مباشر ـ بعض نتائج سفارته على المستويين: العقائدى، والسياسى.

والصورة السابعة: تختلف عن الصور السابقة، لأنها تتناول بعض الإشارات عن الروس، وهذه الإشارات بمثابة مقدمة منطقية لمشهد دفن أحد رؤسائهم، هذا المشهد الذى تجمعت له عدة عوامل ساعدت على أن يكون مشهدا فريدا.

وأخيرا ـ وفى الصورة الثامنة ـ نشاهد ملك الخزر، ولكنها صورة مشوهة بسبب اختلاط ألوانها وضياع أجزاء منها. وكان متوقعا أن توجد صورة تاسعة تختتم بها هذه المجموعة، ولكنها لم تصلنا.

ويستفاد من ذلك أن بنية رسالة ابن فضلان ثلاثية، وأقسامها هى:

١ ـ المقدمة ٢ ـ رحلة الذهاب (حركة) ٣ ـ وصف المنطقة هدف الرحلة (استقرار).

ويلاحظ أن التوازن متحقق بين القسمين: الثانى والثالث، بينما الجزء الأول قصير، وهو مقدمة هدفها توضيح الظروف المحيطة بالرحلة. ويجب أن يكون قصيرا، لأن القارىء يكون مشتاقا لمعرفة الرحلة ذاتها مفصلة.

الثابت أن ابن فضلان وصف رحلته بعد عودته من مهمته، بيد أن هذا لا يمنع كونه قد دون بعض ملاحظاته أثناء الرحلة، فأسماء الأنهار والمواضع التى مر بها ـ والتى أثبت البحث الحديث صحتها وصحة ترتيبها ـ من الكثرة والغرابة بحيث يسهل نسيانها، ولم يكن ابن فضلان ليذكرها إلا إذا كان قد دونها. يقول ـ على سبيل المثال ـ: فعبرنا «يغندى» فى السُّفر أيضا، ثم عبرنا «جاخش»، ثم «أذل»، ثم «أردن»، ثم «وارش» على هذه الصفة التى ذكرنا، ثم عبرنا بعد ذلك نهرا يقال له «جام» ثم «أختى»، ثم «ونتا»، وهذه كلها أنهار كبار»[1]. وهذا لا يتعارض مع كون ذاكرة ابن فضلان قوية، بيد أن هذه الذاكرة تفقد كثيرا من فاعليتها حين يكون هناك اضطراب وقلق نفسى كالذى مر به ابن فضلان وصحبه.

الغالب أن ابن فضلان كان يدون أسماء المواضع التى يمر بها ليقدمها ـ مرتبة بدقة ـ فى تقرير للسلطات الرسمية، على أساس أن هذا التقرير سيعول عليه فى رسم سياسات مستقبلية.

بافتراض أن ابن فضلان قدم تقريرا، فإن هذا التقرير ليس هو الرسالة التى بين أيدينا، بل اتخذه مصدرا ومرجعا، لأنه يحوى معلومات جافة مباشرة، أما ما بين أيدينا فهو نتاج لقاءات بين ابن فضلان وجمع من أصدقائه الذين رأى أحدهم فيما يقول ما يستحق التدوين، فدونه ثم عرضه على ابن فضلان الذى صاغه فى صورته الأخيرة.

إن وصف الرحلة بعد العودة أتاح الفرصة لابن فضلان كى يتأمل انفعالاته، لذا

---

(١) رسالة ابن فضلان ١٠٥ ـ ١٠٦.

فقد الوصف بعض حرارته، ولم يفقدها كلها بسبب براعة ابن فضلان وقوة ذاكرته وروح الرحال المتأصلة فيه.

وقد أتاحت المباشرة ومراعاة مقتضى الحال فرصة طيبة ليتخلص من كل القيود والعوائق التى تربط أدب الرحلة بالجغرافيا، ففعل وجاءت رحلته أدبية خالصة.

تبقى مشكلة فى سؤال: من أطلق اسم «رسالة» على نص الرحلة؟ وما نصيب هذا الاسم من الصحة؟ الظن الغالب أن هذا الاسم لم يكن لابن فضلان يد فيه، وأن المعاصرين له أو المتأخرين عنه هم الذين اخترعوه.

لكن: ما المقصود بهذا الاسم؟ هل يقصد أنها رسالة ـ بالمعنى الشائع؟ ليس ثمة دليل على صحة هذا الزعم. وهل يقصد أنها رسالة أدبية كرسائل الجاحظ؟

لهذا الرأى بعض وجاهة، باعتبار أن المعاصرين لابن فضلان لم يجدوا وصفا يحويها سوى هذا الوصف، فقد كان مستقرا فى أذهانهم أن الرسالة الأدبية «أشبه بالمقالات...، وفيها يتناول الأديب موضوعا ما: فرديا أو اجتماعيا- تناولا أدبيا مبنيا على إثارة عواطف القارئ ومشاعره»[1] ولم يكن مصطلح «رحلة» معروفا، فأرادوا تصنيف ما كتب تحت مظلة مصطلح شائع معروف. ووجدوا مطلبهم فى مصطلح «رسالة»، ونسبوها إلى صاحبها، فأصبح الاسم «رسالة ابن فضلان».

لغة رسالة ابن فضلان غريبة على عصرها، بل إن قارئها ـ دون معرفة زمن تدوينها ـ لن يفطن أبدا إلى أنها مكتوبة فى القرن الرابع الهجرى.

إنه ـ خلاف عصره ـ لا يستخدم المحسنات البديعية بعامة، والسجع منها بخاصة، فقد أغنته قدرته على الوصول إلى هدفه من أقصر الطرق وأسهلها عن اللجوء لمثل هذا السجع، كما أغنته القيمة الذاتية الموضوعية عن اللجوء إليه. وكأنما أحس ـ بروح الفنان ـ أن السجع معوق، فنحاه عن طريقه.

ولم يحاول ـ فضلا عن ذلك ـ الاستعانة ببعض المزينات الأخرى، فقد خلت الرسالة من الشعر، بينما تضمنت عدة آيات قرآنية وحديثا شريفا ورد نصا. وهذا التضمين لم يكن بغرض التزيين وإنما كان متوافقا مع خط سير الأحداث.

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب. د/ أحمد بدوى. دار نهضة مصر. ١٩٧٩، ص٥٨١.

والرحال يسعى دائما إلى التخلص من كل القيود حتى يصل إلى هدفه، والرحلة حركة فى مجال رحب فسيح..الرحلة حرية، ولقد تحرك ابن فضلان حركة حرة فى إطار المهمة المكلف بها، وكان سرده لتفاصيل هذه الحركة حرا كذلك. صحيح أنه اتبع منهجا محكوما بالزمان والمكان، إلا أن هذا الإطار كان مرنا بحيث أتاح له حرية الحركة والوصف فى آن. سرد ابن فضلان لأحداث قصته رشيق خفيف منسق، لا فجوات فيه.

والمفردات المستخدمة سهلة مألوفة معبرة، مستقرة فى موضعها. ولا يعكر صفوها إلا بعض المفردات الحضارية التى تخص أماكن بينها، وكذا بعض الأعلام الأعجمية. وثمة أفعال بعينها تحتم طبيعة الرحلة تكرارها مثل: رحل وسار... إلخ. وفى رحلة ابن فضلان تتكرر أفعال: رحلنا ـ سرنا ـ أقمنا ـ رأينا ـ نزلنا ـ حوالى عشرين مرة لكل، وتليها ـ فى المرتبة الثانية ـ أفعال: صرنا ـ قدمنا ـ وصلنا ـ عبرنا ـ انصرفنا ـ أهدينا ـ خرجنا ـ أخذنا ـ أوغلنا، ثم تأتى فى المرتبة الثالثة أفعال صادقنا ـ قطعنا ـ انحدرنا ـ تزودنا ـ اكترينا ـ أفضينا ـ اجتزنا ـ مضينا. ويلاحظ أن معظم الأفعال وردت مضافة إلى «نا الفاعلين» وشيوع هذه الأفعال التى هى «أحداث فى زمان» يتناسب وجو الرحلة المعتمد على الحركة.

– واستخدامه لأدوات العطف دقيق يخدم غرضه، ويوحى بالبعد الزمانى، يتحدث عن أمير خراسان الذى رفض السماح لهم بمواصلة السير فيقول: «فانصرفنا عنه ذلك اليوم، ثم عاودناه، ولم نزل نرفق به ونداريه ونقول: «هذا أمر أمير المؤمنين وكتابه، فما وجه المراجعة فيه؟ حتى أذن لنا، فانحدرنا من خوارزم إلى الجرجانية»[1] استعراض طريف لأدوات العطف، واستخدام دقيق معبر لها.

– وفى بعض تعبيراته يبلغ مبلغا من السهولة، فيقارب العامية، مثل: «نزعوا ثيابهم وشرورها»[2]، و «لما سمعت تثنيته للإقامة نهيته وصحت عليه»[3]، و«هو رجل من صفته ونعته»[4]، «وأنا أعلم أنه يطالبكم» [5] «ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذى كان برد «خوارزم» عنده مثل أيام الصيف»[6].

(١) رسالة ابن فضلان ٨١ .
(٢) السابق ٩٠.
(٣) نفسه ١٢١ .
(٤) نفسه ٧٨.
(٥) نفسه ٨٨ .
(٦) نفسه ٨٩.

وقد يحكى ابن فضلان بعض مفردات أجنبية، ثم يترجمها، مثل: «بيرتنكرى» وتعنى بالتركية ـ كما أوضح ـ «الله الواحد». ومثل «بكند» بمعنى الخبز.. وهذه الحكاية تؤكد واقعية الرحلة. ويستخدم ابن فضلان الحوار بشكل مكثف لا يدانيه فيه رحال آخر، هو يدرك أن الحوار يعبر عن الحياة الاجتماعية الحقة التى تقوم على التواصل بين أفرادها باللغة، ومن خلال الحوار بالأخص، وهو يعى أن الحوار أفضل عوامل الكشف عن الشخصيات، وعن أسلوب تفكيرها، لذا فإنه يقدم مواقف حوارية عديدة تاركا للقارىء حرية استنباط الدلالة.

ولقد كان هذا الحوار سببا فى شهرة رحلة ابن فضلان وتعدد الدراسات حولها. وقد ساعد هذا على تثبيت رحلته كنمط أدبى بعيد عن النمط الجغرافى، لأن الحوار من السمات المميزة للأدب. أكثر من خمسة عشر موقفا حواريا قدمها ابن فضلان، وهى فى أغلبها ـ قصيرة تضفى الحيوية على الرحلة، مؤدية لغرضها، تضيف جديدا دائما، تخفف من غلواء السرد المتواصل، فتعطى القارىء فرصة لالتقاط الأنفاس، والتقاط الحقائق من بين ثنايا الكلام.

***

-٩-

وإحدى الرحلات العربية الشهيرة ما سمى رحلة «الفتية المغررين» أو «المغرورين»؛ فقد أثارت جدلا كبيرا، واشتط بعض الباحثين فى استخلاص نتائجها.

وأول من تعرض لها كان الإدريسى، وعنه نقل معاصره «أبو حامد الغرناطى» ثم ابن الوردى وابن فضل الله العمرى. بيد أن رحلة مشابهة قام بها فتى أندلسى ذكر المسعودى أن اسمه «خشخاش» يمكن أن تنطبق على تلك الرحلة، أو تكون رحلة مشابهة مثلت المثير الذى ألهب حماس الفتية المغررين.

القيمة العلمية لهذه الرحلة تفوق قيمتها الفنية. وأقل ما يمكن أن يقال عن قيمتها العلمية: إنها كانت فتحا أتاح الفرصة ـ ومهد السبيل ـ «لركوب المحيط الأطلسى» الذى عرف «ببحر الظلمات» ومن ثم فإن باحثا يرى أن الخصومة

القائمة بين الأوروبيين لتعيين أى شعوبهم سبق إلى ركوبه، والكشف عن غوامضه ـ خصومة على غير أساس، وأن «السابقين إلى ذلك كانوا أولئك الفتية المغررين من أهل لشبونة»[1] وفى مقال بعنوان: «عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها أبناء الغرب» أصر الأب «نستاس الكرملى» على أن العرب المسلمين قد وصلوا أمريكا قبل الأوروبيين، وأخذ يدلل على ذلك بأدلة عقلية ونقلية ولغوية ـ وإن كان اتكاؤه على الجانب الأخير، ثم ختم بحثه قائلا: «وأنا أتحدى كل أديب ينكر علىّ هذه الحقاق، أن يفندها تفنيدا علميا: إما على طريق التاريخ، وإما على سبيل اللغة، وإما على سبيل النقل عن السلف. بشرط أن يكون التفنيد طلبا للحقيقة، لا للمماحكة والمعارضة والمعاندة والمباهاة»[2]. ثم دعم رأيه ـ فى عدد تال ـ بنص منقول عن أبى الثناء الأصفهانى، يؤكد فيه وجود حياة على الجانب الآخر من المحيط الأطلسى[3].

ولعل هذه الرحلة «لم تكن مجهولة فى العصور الوسطى، بل لعل «كولومبس» كان يعرفها، ويعرف قصصاً أخرى من أخبار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسى، وكشف غوامضه»[4].

والفتية المغرورون ثمانية من أبناء العمومة، تحالفوا على القيام بمغامرة تنتهى بأحد شيئين: الوصول إلى الجانب الآخر، أو الموت؛ فأعدوا مركبا كبيرا، وحملوا فيه من الزاد ما يكفيهم مدة طويلة. وانتظروا الريح الملائمة للإبحار، فساروا فى المحيط أحد عشر يوما انتهت بدخولهم بحراً مخيفا، فحولوا دفتهم، وساروا اثنى عشر يوما، حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم فذبحوا بعض غنمها الذى اتضح أن طعم لحمه مر، فأخذوا كمية كبيرة من جلودها، وتزودوا الماء العذب. ثم أبحروا عشرين يوما، فوصلوا جزيرة ذات عمارة، فقصدوها فأحاطت بهم الزوارق، واعتقلوا، وسيقوا إلى ملكها فى اليوم الرابع بشفاعة ترجمان يعرف العربية، وعندما حكوا حكايتهم للملك ضحك، وأخبرهم بتجربة مماثلة قام بها، فباءت بالفشل.

---

(١) مجلة الثقافة . د/ عبد الحميد العبادى. عدد ١٩٤١/٨/٢ ص٦ وانظر نص الرحلة فى الروض المعطار ١٦ ـ ١٨ والرحلات لشوقى ضيف ٤٢ ـ ٤٤.

(٢) مجلة المقتطف عدد فبراير ١٩٤٥، ص ١٦٠.

(٣) مجلة المقتصف عدد مارس ١٩٤٥ ص ٢٨٧.

(٤) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ٥٠

ولما هبت ريح موافقة عصب رجال الملك أعين الفتية، ووضعوهم فى زورق، ثم سافروا بهم مدة طويلة، حتى وصلوا ساحلا، فتركوهم معصوبى الأعين، وعادوا. فلما انصرفوا أخذ الفتية يصيحون، فسمعهم سكان الساحل، فأقبلوا نحوهم، وحلوا عن أعينهم ثم أخبروهم أن بين هذا الموضع وبلدهم شهرا. فلما عادوا إلى بلدهم حدثوا الناس بحديثهم، فتعجبوا وأطلقوا اسمهم على الحى الذى يقطنونه. ورغم أن الرحلة لم ترو على لسان أصحابها ، فقد أجاد الإدريسى وصفها، وتصوير الظروف والملابسات التى أحاطت بها، ولابد أن بعض بصماته تظهر عليها.

إن أهم ما يميز هذه الرحلة فنيا أنها تؤكد على صفة رائعةفى هؤلاء الفتية، تجعلهم فى مصاف الرحالة الكبار، ذلك أنهم امتلكوا روح المغامر الشجاع الذى لا يعبأ بخطر أو مجهول، بل يتمنى الخطر والمجهول ليقتحمهما، ثم ليخرج سالما من أجل مواجهة خطر أو مجهول جديد.

صحيح أن الرحلة تحمل طابع الاستكشاف، ولكن هل كان متاحا أن يصير هذا الاستكشاف واقعا لولا الدافع الذاتى الملح فى نفوس هؤلاء الفتية؟!

إن التركيز على أن هؤلاء المغامرين فتية يكشف عن توفر إمكانات مؤهلة لنجاح الرحلة؛ فهم فتية، صغار السن، يستطيعون تحمل المشاق كما أن لهم من العقل والذكاء ما يضمن لهم العودة سالمين وإن لم يتحقق هدفهم كاملا. وهم واعون تماما بأن ما يقومون به ليس عبثا أو تسلية. بل يعون أنهم يبغون خير البشر، وسعادتهم. وفى سبيل هذا الخير وتلك السعادة يبذلون أرواحهم رخيصة. من هذا المنطلق قدر لهم معاصروهم الأقربون سمو هدفهم، وعظيم تضحيتهم. وكان إطلاق اسمهم على مكان بعينه بمثابة التكريم المعنوى الذى يلمح ضرورة أن يكون فعلهم هاديا لمن يلى، ووعيا بأن كل تكريم مادى مرتبط بآنه فحسب.

لقد كان ما قام به هؤلاء عجيبا، ومن ثم استحق الذيوع والانتشار، وتعددت رواياته بتعدد من يحكونه، فاضطر الذين سجلوه إلى الاقتصار على المعالم الأساسية مغفلين كل تفصيل. ولم يكن تعدد الروايات فى صالح الفن بحال. فقد تواطأت هذه الروايات على إخفاء كل ما هو فردى ذاتى، وكل ما هو إنسانى قد حكاه

الفتية. لتبقى الرواية النهائية تلخيصا قد يكون وافيا ومعبرا عن الرحلة.

ولأن الرواية النهائية تلخيص واف، فقد تضمنت الوحدات الأساسية لكل رحلة، فالمقدمة أكدت بما لا يدع مجالا للشك إصرار الفتية على تحقيق هدفهم، وكانت رحلة الذهاب شاهد صدق على إخلاصهم لهذا الهدف. ثم دارت الأحداث فى الجزيرة البعيدة المأهولة كبديل للبر الغربى، وكانت رحلة العودة الغريبة إمعانا فى تمجيد هؤلاء الفتية وتقديرهم. وبوصول الفتية إلى بلادهم تحل عقدتهم، ويقتنعون بأنهم فعلوا ما يستطيعون. ومن ثم يكون مبررا أن يحكوا قصة رحلتهم مع غير قليل من الفخر والاعتزاز.

فى حال النص الغيرى يصبح صعبا تقويم طريقة الأداء اللغوى. فهل ينسب النص إلى راويه؟ أم إلى صاحبه الفعلى؟

الحل التوفيقى يقتضى اعتبار النص حاملا للخصائص الأصلية التى أداه عليها صاحبه، ثم جاء صائغه ليضفى عليه بعض لمساته التى تغير فى الشكل الخارجى دون مساس بالجوهر. إن طبيعة الرحلة ـ كحدث متكامل الحلقات ـ تفرض على مسجلها التزام سبيل التوحيد والتوصيل، ذلك أنه لا يخترع أحداثا ووقائع، وإنما يصفها. وليس مطلوبا منه إلا أن يؤديها كما وصلته، مع بعض تدخل ـ إذا اقتضى الأمر ـ لصالحها، لا عليها.

الوحدة الموضوعية ـ إذا ـ أمر واجب توفره على المستويين: النظرى والتطبيقى، ولأن الوحدة الموضوعية متحققة كإطار، يصبح من السهل حشو هذا الإطار بتفاصيل متناسقة. وقد أدى اتساق الإطار العام واستقامة الخطوط إلى الوضوح على كافة المستويات، وكان المستوى اللغوى أبرزها، فجاءت المفردات مختارة بعناية، رغم أنها لا تقصد لذاتها، كما يمكن التغاضى عن بعض المفردات التى تعسر على الفهم المعاصر مستقلة، وإن كان سياقها الواضح يعوض هذا النقص، فتبدو مألوفة.

والحوار ـ رغم أنه لا يشغل حيزا مناسبا ـ دليل أمانة فى النقل، ودليل حيوية تمتعت بها الرحلة الأصلية، وانعكس هذا التفاعل البشرى على النص.

-١٠-

ألف الربان «بزرك بن شهريار الرامهر مزى» كتابه «عجائب الهند: بره وبحره وجزائره»، فى منتصف القرن الرابع الهجرى، لينال شهرة عظيمة، واهتماما علميا متناميا.

برزك بن شهريار لم يكن معروفا فى عصره، وكل ما وصل عنه أنه كان ربانا، وأنه مؤلف الكتاب الرائع، الذى نشر لأول مرة عام ١٨٨٦ بليدن، فى طبعة فاخرة تضارع أحدث الطبعات ـ إن لم تفقها، مشتملة على النص الأصلى الذى حققه «فون ديرليث» تحقيقا يحتاج إلى مراجعة شاملة، وترجمة قام بها ـ مارسيل ديليك وضعت فى الشطر الأسفل للصفحة. كما قدم له «فون ديرليث» بمقدمة قصيرة، وختمه بتعليقات وفهارس متنوعة.

وقد استخلص ناشر مصرى النص العربى من هذه الطبعة، ونشره عام ١٩٠٨، حاويا الأخطاء الكثيرة فى طبعة ليدن، بل أضاف إليها. ويبدو أنه كان يقصد إلى تقديم الكتاب للطبقات الشعبية، فتجاهل أصول النشر العلمية. ولعل دلالة واضحة ينطوى عليها هذا التصرف. وحتى الآن مازال الكتاب ينتظر من يحققه تحقيقا علميا جديرا به، ثم يدرسه دراسة شاملة تزيل عنه ما علق به من غبار الإهمال والنسيان.

ولقد عرف باحثون كثيرون لهذا الكتاب قيمته، فأثنوا عليه بما يستحق ـ فكراتشكوفسكى يراه «مصنفا أدبيا ممتازا، لا يقل قيمة، عن أفضل مواضع «أسفار السندباد» بل يفوقها أحيانا»[١] وليس غريبا ـ بعد ذلك ـ أن يعتبره د/ حسين فوزى «صورة من الحياة على ظهر البحر الشرقى وفوق شواطئه وجزائره، تساعدنا على فهم كثير مما ورد فى كتب الجغرافيا العربية. بل نجد فيه أكبر المعونة على شرح القصص البحرية وتحليلها فى الأدب العربى. وإذا صدقنا بعض روايات صاحب الكتاب، فإننا نجد فيه سجلا قيما جدا لما كانت تتناقله الألسنة والأسماع فى موانىء سيراف ورامهرمز)وغيرهما) عن ربابنة «بحر الهند والصين»[١].

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١٤٣/١.

(٢) حديث السندباد القديم ٤٤.

ويبصر د/ شوقى ضيف فى الكتاب «قصة ملاحى العرب فوق متن المحيط الهندى والهادى على توالى العصور، وما شاهدوا فيهما من عجائب الملاحة وغرائب العواصف، وما أبصروه من حيوانات وأسماك بحرية، وطيور ونسور مائية»[1].

كتاب برزك موسوعة بحرية شاملة، اجتهد هذا الربان فى جمع مادتها متبعا وسائل عدة، أهمها السؤال المباشر، بل استنطاق كل من له صداقة مع البحر ما يعرفون عنه من غرائب وعجائب وحوادث، عاينوها بأنفسهم، أو حدثت، لهم أو نقلوها عن غيرهم. وحين يجد البحار آذانا صاغية تنساب حكاياته، فلا يستطيع سكوتا أو تواضعا، بل يشرع فى الكلام، ويستزاد فيزيد، فإذا ما أوشك محصوله على النفاد شحذ زناد فكره ليخترع مالم يحدث، أو ليضخم حوادث صغيرة. المهم أن يكون حاضرا وفاعلا.

إذا، أفلح بزرك فى مهمته، مستغلا صداقته لأبناء مهنته، فجمع مواد تلك الموسوعة، وأداها كما سمعها، دون محاولة لمصادرة رأى، أو تكذيب حادثة، أو تشكيك فى ثقة، فجاء الكتاب صورة مطابقة لحياة البحريين التى لا يحكمها منطق.

الدور الرئيسى لبزرك فى هذا الكتاب هو لم شتات تلك الحكايات البحرية، وهذا ليس دليل سلب، فالحس الحضارى المرهف دفعه إلى تسجيل صورة عصره، وجاء التسجيل أمينا. ثم دفعه هذا الحس المتميز لتقريب صورة عصره إلى الأذهان؛ فقدمه فى صورة فنية قصصية، يسمع القصة من صاحبها، ويلم بأركانها الأساسية، ثم يعيد صياغتها بأسلوبه هو.. وبألفاظه هو.. إنه يعيد خلقها.. يبدعها من جديد، فتتحول إلى «قصة مغامرات، أو دراما أخلاقية معروضة بالكثير من المهارة الفنية. ويحس من هذا العرض العام للقصص أنها لشخص يتمتع بأسلوب حى سلس، ويجيد الفن القصصى، ويعرضه - أحيانا ـ بطريقة وجدانية مؤثرة»[2]. إنه لا غلو

---

(١) الرحلات ٣٣.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى ١٤٣/١.

حين القول بأن بعض قصص بزرك تضارع كثيرا من النماذج المشرقة المتميزة للقصة القصيرة المعاصرة- هذا إن لم تتفوق عليها.

إن عدة رواة بزرك ثلاثون راويا سوى المجهولين، وتتراوح مساهمتهم بين مساهمة واحدة واثنتى عشرة، ولأبى محمد الحسن بن عمر بن حمويه بن حرام النجيرمى البصرى، وأبى عبد الله محمد بن بابشاد بن حرام ابن حموريه السيرافى أن يفخرا بأنهما أكبر مساهمين؛ إذ تساويا فى الإيجابية التى أفرزت اثنتى عشرة مساهمة لكل. يليهما ـ فى المركز الثانى اسم عيلويه الناخدا بسبع مساهمات، فجعفر بن راشد المعروف «بلاكيس» بأربع مساهمات.

والكتاب ينقسم إلى قسمين، أولهما ضعف الثانى. ولا أساس يحكم هذا التقسيم. وكل قسم يحتوى على مادة معرفية تتخذ شكلين أساسين:

١ ـ قصة بحرية هدفها إلقاء ضوء أو تقديم معلومة، أو إثارة شفقة، أو زيادة إيمان.

٢ ـ معلومة مباشرة ، قد تقدم فى سطر واحد، أو فى بضعة أسطر. وما يميز الكتاب قصصه البحرية الرائعة التى تنتمى إلى أرض الواقع ولا يدخلها الخيال إلا خلسة ولا تقل صفحاتها عن الواحدة، ولا تزيد عن العشر، يركز أغلبها على حادث أو فكرة واحدة، فى حين تتشابك الحوادث وتتداخل فى بعضها. وفى كلتا الحالتين تلتزم القصة الإطار العام للقصة البحرية التى «يصور المؤلف حدوثها فى داخل البحر أو فوق سطحه أو على سواحله وجزائره. ويكون البحر حاضرا فى ذهن المؤلف والقارئ وأشخاص القصة كلهم أو بعضهم. وللبحر أثر واضح فى حوادثها، أو على أشخاصها»[1]. ولعل أروع تلك القصص وأنضجها فنيا قصة الشيخ الأندلسى (ص١٥) والرقيق الطائر (٢٣) والملك العبد (٣٨) والقرد الإنسان (٥٠) والمرأة الشجاعة (١٠٣)، والمصيبة الكبرى (١٢٥) [2] ففى بعضها يصل التحليل النفسى لشخوصها إلى درجة عالية، وفى بعضها يبلغ الوصف حدا بعيدا من الإجادة، وفى كلها تستخدم عناصر فنية. ولعل الميزة الكبرى لهذه القصص وغيرها أن العلاقة بينها وبين الواقع لا تنفصم بحال.

(١) حديث السندباد القديم ١٨٨ .

(٢) الأسماء السابقة مقترحة، وما بين القوسين رقم الصفحة فى طبعة القاهرة.

ويلاحظ أن برزك اكتفى بنقل القصص أو المعلومات من غيره، ولم يشر إلى ما يمكن أن يعد من تجاربه الشخصية، أو معارفه الخاصة. فهل كان الأمر كذلك؟ الإجابة على هذا التساؤل تحتمل افتراضين:

١ ـ أن بعض ما رواه نتاج تجربة شخصية حقيقة، غير أنه تحرج من نسبتها إلى نفسه حتى لا يتهم، ومن ثم اخترع رواة وهميين نسب إليهم ما يريد. وكثير من رواته مجهولون ـ بمعنى أنه لم يذكر أسماءهم ـ وهذا يؤدى إلى القول بأن بعض ما رواه عنهم ربما كان من روايته هو.

٢ ـ أن بزرك كان ـ دوما ـ يستمع إلى الإطار العام للقصة، ثم يتولى بنفسه حشو هذا الإطار، معتمدا على تجاربه الخاصة، وقد ذهب إلى هذا الرأى د/ حسين فوزى بعد قراءته لقصة منسوبة لأبى الزهر البرختى ـ أعنى قصة الشيخ الأندلسى ـ يقول: «لقد كنت أتساءل أيام قراءتى لكتاب عجائب الهند قراءة عابرة ـ إذ رأيت بزرك بن شهريار ينقل إلينا طول كتابه أحاديث غيره::لماذا لا يحدثنا بزرك بن شهريار الناخداه عن أسفاره هو؟ إلى أن لاحظت بعد دراستى تلك الصفحات المختارة أنها إما من قلم أبى الزهر البرختى نفسه، أو أن أبا الزهر قص على بزرك قصته، فلما أخذ هذا فى كتابتها تصور حال مركبه وهو وسط العواصف، فوصف إعصارا من الأعاصير التى خبرها بنفسه فى حياته الطويلة»[1]. ويجمل فى هذا الموضع نقل هذا الوصف الرائع لذلك الإعصار. تحدث بزرك عن مسافرين «وهم يسيرون فى بحر «ملانو» وقد قربوا من أطراف أرض «صين» وأبصروا بعض جبالها، فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من تلك الجهة التى يقصدونها، فلم يسعهم إلا الانصراف معها حيث توجهت، وركبهم من هول البحر ما لا طاقة لهم به.

ومرت بهم الريح إلى سمت سهيل، ومن اضطر فى ذلك البحر إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحرا لا رجعه له منه، وتنكس فى لجة هابطة إلى الجنوب،مصوبة إلى تلك الجهة. كلما مر مركب علاما وراءها من جهتنا،

(١) حديث السندباد القديم ٤٩ ـ ٥٠

وهبط ما بين يديها من تلك الجهة، فلا يستطيع الرجوع بريح عاصف ولا بغيره، وهوت فى لجج البحار المحيطة. فلما رأوا أمرهم يؤدى إلى الدخول تحت سهيل، ودخل عليهم الليل وأظلم وادلهم، وحال بخار البحر ودجنته ونداه وزخره بينهم وبين النجوة، فلم يروا ما يهتدون به، وهول البحر وأمواج ترفعهم إلى السحاب وتخفضهم إلى التراب، وهم يجرون فى قارو ضباب طول الليل، وأصبح عليهم، فلم يشعروا به لشدة ظلمة ماهم فيه، واتصال قار البحر، مع ضباب الجو وغلظ الريح وكدورته. فلما طال عليهم الليل وهم يجرون فى قبضة الهلكة قد حكم عليهم الريح العاصفة، والبحار الزاخرة، والأمواج الهائلة ومركبهم يئط ويئن، ويتقعقع ـ توادعوا، وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده، لأنهم كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزائر، واستسلموا للموت، وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيهن بين الليل والنهار»[1].

ومما يدل على أن ثمة تدخلا من قبل بزرك تفصيله لقوانين البحر ـ العرفية ـ التى ارتضاها أصحاب وربابنة وبحارة المراكب، كقوله على لسان أبى الزهر ردا على رجاء الركاب أن يقلب بهم المركب: اعلموا أنه قد يجرى على المسافرين والتجار أهوال هذا أسهلها وأرحمها، ونحن ـ معشر الربانية ـ علينا العهود والمواثيق ألا نعرض سفينة إلى العطب وهى باقية لم يجر عليها قدر. ونحن ـ معشر ربانية السفن ـ لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها، فنعيش بسلامتها، ونموت بعطبها. فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر»[2].

والكتاب ـ بعد ذلك ـ يمكن أن يطلق عليه «معجم رحلات» أو «موسوعة رحلات» إنه لا يعتمد على رحلة واحدة فحسب يقوم بها رحال ـ أو رحالون، وإنما يعتمد على رحلات عديدة ذات ملامح متباينة حينا، متقاربة أحيانا. غير أن جمع هذه الرحلات كان بمثابة محاولة جادة لوصف رحلة واحدة هى: «رحلة العرب إلى الهند» ولأن هذه الرحلة الكبرى مكونة من وحدات صغيرة كثيرة، اتسع الخرق على الراقع، ولم يستطع بزرك لها ضبطا أو تنسيقا. فوضعها كيفما اتفق.

(١) عجائب الهند ١٦ ـ ١٧.

(٢) نفسه ١٧ ـ ١٨.

وباستعراض الصورة العامة لتلك الرحلة يتضح ذلك:

فهو يبدأ بمقدمة تقليدية: يحمد الله تعالى، ويصلى على رسوله (صلى الله عليه وسلم)، ثم يوضح أن العجائب عشرة أقسام، تسعة منها فى الشرق، وجزء فى بقية المعمورة. وثمانية من التسعة فى الهند والصين. ونظرا لهذا التفوق العجائبى فإن الهند ـ والصين ـ تستحق أن يفرد لها هذا الكتاب.. ويلاحظ هنا أن بعض ما أورده يتفق وما أورده التاجر سليمان، مما يدل على صحة المصدرين معا.

فى القسم الأول يركز بزرك على محورين:

١ ـ القصص البحرى.

٢ ـ العجائب المتصلة بالبحر: الأسماك، والحيوانات، والطيور.

وفى القسم الثانى يركز على محورين أيضا:

١ ـ العجائب البحرية.

٢ ـ العجائب البرية فى الهند، خاصة فيما يتصل بالعادات والتقاليد ونظم الحكم.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن العنوان الذى اختاره لكتابه يكون معبرا تعبيرا دقيقا عن المضمون. وذلك ما يسجل لصالح بزرك. وتكون المحاور التى اعتمدها برزك ثلاثة:

١ ـ القصص البحرى.

٢ ـ العجائب البحرية.

٣ ـ العادات والتقاليد الهندية العجيبة.

وليس معنى الثقة فى بزرك أن كل ما يرويه صدق محض، فتلك العجائب التى يرويها منها الممكن ـ باعتبار اختلاف البيئات، ومنها المحتمل؛ فالله قادر على كل شىء. ومنها ما يكاد يكون مستحيلا. ولكن تجدر الإشارة إلى أن العلم الحديث قد أثبت أن بعض قصص بزرك التى ملئت بالمبالغات والأعاجيب... لا تخلو فى

أساساها من الصدق فى أغلب الأحيان»[1]. وقد تتبع متخصص فى علوم البحار كثيرا من روايات بزرك التى تبدو مستحيلة للوهلة الأولى، وأثبت أنها قائمة على حقائق علمية عاينها بنفسه[2].

ولعل أهم ما يميز هذا الكتاب أسلوبه الفريد، الذى يعد مستشرفا آفاقا من السمو فوق كل مما حكة أو تكلف.

لقد عبر بزرك عن نفسه هو، وبأسلوبه هو، وكان صريحا؛ فلم يجنح إلى تمويه ملفوظ، أو إغراب ممجوج. كان يستدعى أركان حكايته ويعرضها على ذهنه كشريط أحداث متصل، ثم يفيض من مشاعره وأحاسيسه عليها، وعندما تتمثل الحكاية فى ذهنه كاملة يترك العنان لقلمه، فينطلق مسجلا ماجل ودق، وتخرج الحكاية طبق الأصل الذى فى ذهنه.

ولأن الألفاظ الحاملة للمعانى كانت تخرج بلا تكلف ودون استكراه أو معاودة، فقد أصاب بعضها ضعف، فخرجت عن إطار الفصيح، واندرجت فى سلك العامى. كما ظهر الخلل فى تركيب بعض الجمل أما الأخطاء النحوية والإملائية فكثيرة فجة، وليس معروفا إذا ما كانت هذه الظواهر أصلية عند بزرك، أو دخيلة عليه بسبب النساخ أو المحقق.

لم يتعلم بزرك البلاغة فى مدرسة بغداد أو البصرة، وإنما تعلمها فى مدرسة الحياة، ولذلك فإن «المطالع المنصف لا يتمالك أن يحس بالنفحة البحرية تهب على صفحاته، والقوة والحركة تسرى فى أعطافه. لقد طالعت أكثر ما جاء بالأدب الرسمى العربى عن البحر، فلم أجد فيه ما يدانى ـ ولو من بعيد ـ ما جاء بكتاب «عجائب الهند» صدقا فى الوصف، وقوة على الإيحاء بالجو البحرى. وليس هذا أثرا من آثار التقعر البديعى والبيانى، وإنما هو نتيجة إيضاح المتكلم إيضاحا مباشرا عن تجاربه الشخصية، فهى بلاغة كثيرة الشبه ببلاغة المشاهدة فى يوميات الرحالين والرواد فى كل اللغات، بلاغة ترتفع باللغة إلى نوع من السهولة والصفاء، يجعل

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٦١٧/٣.

(٢) حديث السندباد القديم ٦٢ ـ ٦٤.

من عريها جمالا، ومن عطلها حليا نادرا لا تراه العيون، وإنما تشعر به النفوس»[1].

والجزء الوحيد الذى يشذ عن هذه القاعدة هو المقدمة، التى بدا فيها بزرك حريصا على السجع، متكلفا على غير العادة، مما يحمل على الظن بأنها ليست من صنعه، وأنها منحولة عليه من قبل أحد نساخ مخطوطته. يقول ـ مثلا ـ «صلى الله عليه وآله مالمع برق. وأشرقت شمس من شرق». وهذه الجملة الأخيرة ذات دلالة ترتفع بها عن أن تكون مجلوبة للسجع فحسب، فمغزى طلوع الشمس من الشرق واضح، ثم إن ذلك كان بمثابة حسن تخلص رابط بين المقدمة والموضوع ذاته. واتساقا مع الواقع الفعلى يحكى بزرك بعض المفردات الأجنبية مثل: «إنشرتوا، معناه، ما أعمل لهم»[2]. و«فقال لها: أنا بلا وجزك. وهو بكلام الهندى: إنى أفعل بنفسى مثل ما يصيبك»[3].

وليست هذه هى المفردات الصعبة فحسب، بل تواكبها مفردات عديدة من القاموس الخاص بالبحارة مثل: الأنجر ـ السكان ـ الدبدبان ـ مطيال ـ دونينج ـ قارية... إلخ. وقد ينم أسلوبه عن دهشته؛ ففى مواضع كثيرة يختم الحكاية أو المعلومة بقوله: «تبارك الله أحسن الخالقين» أو شكه بالتعقيب الشهير «والله سبحانه وتعالى أعلم». وكل ما يرويه بزرك نتاج حوار: خارجى وداخلى. والخارجى بينه وبين راوى القصة أو المعلومة، والداخلى ما كان متضمنا فى القصة نفسها.

ولعل استخدام الحوار بهذا التكثيف دليل تمكن بزرك من أدواته، ودليل إدراكه لطبيعة قارئه الذى لا يصبر على التلقى الممل الجاف المباشر طويلا، بل يطمع فى سماع وجهات نظر، فى الإحساس بتفاعل.. بحركة وحيوية. وتأتى المواقف الحوارية تلك لتؤكد على تشبع بزرك بروح الفنان الواعى.

---

(١) حديث السندباد القديم ٤٥

(٢) عجائب الهند ٢٧

(٣) نفسه ٨٦.

المصادر والمراجع

١ - المصادر:

١ - القرآن الكريم.

٢ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم:

المقدسي: تحقيق / دى خويه. مطبعة بريل ليدن ١٩٦٧.

٣ - إحياء علوم الدين:

أبو حامد الغزالي «مكتبة الدعوة الإسلامية» القاهرة د. ت

٤ - أخبار الزمان:

ينسب للمسعودي (؟) تحقيق / عبدالله الصاوى. دار الأندلس . بيروت ١٩٨٣.

٥ - الأعلاق النفيسة:

ابن رسته، تحقيق دي خويه. ليدن ١٩٦٧.

٦ - الأغاني:

أبو الفرج الأصفهاني ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ ومابعدها.

٧ - الإفادة والاعتبار:

عبد اللطيف البغدادي. تحقيق / أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، بيروت ١٩٨٣.

٨ - الإكسير في فكاك الأسير محمد بن عثمان المكناسي. تحقيق: د/ محمد الفاسي. الرباط ١٩٦٥.

٩- الإمتاع والمؤانسة:

أبو حيان التوحيدي. تحقيق/ أحمد أمين وأحمد الزين. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. ١٩٥٧.

١٠- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب:

أبو حامد الغرناطي. تحقيق/ جبرائيل فيران. باريس. ١٩٢٥.

١٢- تلبيس إبليس:

ابن الجوزي. مكتبة المتنبي. القاهرة ١٣٨٦ هـ.

١٣- التنبيه والإشراف:

المسعودي. تحقيق / دي خويه بريل ليدن ١٩٦٧.

١٤- التنبيه والإشراف:

المسعودي. تحقيق/ عبد الله الصاوي. القاهرة

١٥- خريدة العجائب وفريدة الغرائب:

عمر بن الوردي. البابي الحلبي. القاهرة ١٩٣٩.

١٦- خطط المقريزي:

المقريزي . دار التحرير . القاهرة. د. ت.

١٧- دمية القصر:

الباخرزي. تحقيق د/ سامي مكي العاني . مطبعة المعارف. بغداد ١٩٧٠.

١٨- رحلة الإمام الشافعي:

نشرها محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية القاهرة ١٣٥٠ هـ

١٩- الرحلة في طلب الحديث: الخطيب البغدادي. تحقيق/ نور الدين عنتر. دار الكتب العلمية. بيروت ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥م.

٢٠- رسالة ابن فضلان:

ابن فضلان. تحقيق د/ سامي الدهان. دمشق ١٩٥٩.

٢١- الرسالة الثانية:

أبو دلف مسعر بن مهلهل. تحقيق/ بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف. ترجمة د/ محمد منير موسي . عالم الكتب. القاهرة ١٩٧٠.

٢٢- الروض المعطار في أخبار الأقطار (صفة جزيرة الأندلس) .

الحميري تحقيق: ليفي بروفنصال. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧.

٢٣- سلسلة التواريخ:

التاجر سليمان. تحقيق/ لانجليس . باريس ١٨١١.

٢٤- صفة جزيرة العرب:

ابن الحائك الهمداني. تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد. مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣.

٢٥- صورة الأرض:

ابن حوقل. تحقيق / كرامرس. ليدن ١٩٦٧.

٢٦- عجائب المخلوق وغرائب الموجودات:

زكريا بن محمد بن محمود القزويني. مكتبة محمود توفيق القاهرة. د. ت.

٢٧- عجائب الهند: بره وبحره وجزائره:

بزرك بن شهريار الناخداه الرامهرمزي. مطبعة السعادة. القاهرة ١٩٠٨.

٢٨- الفهرست: ابن النديم. تحقيق/ رضا تجدد. طهران. د. ت

٢٩- كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، وما فيها من القري، وما ينبت عليها من الأشجار، وما فيها من المياه:

عرام بن الأصبغ السلمي. تحقيق/ عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٧٣ هـ.

٣٠- لسان العرب:

ابن منظور. تحقيق/ لجنة من دار المعارف. دار المعارف. القاهرة ١٩٧٩ .

٣١- لطائف المعارف:

الثعالبي النيسابوري. تحقيق/ إبراهيم الإبياري وحسن كامل الصيرفي. البابى الحلبي . القاهرة ١٩٦٠ .

٣٢- مختصر تفسير ابن كثير:

ابن كثير. محمد علي الصابوني. دار القرآن. بيروت ١٩٨١ .

٣٣- مختصر كتاب البلدان:

ابن الفقيه. تحقيق/ دي خويه. ليدن ١٩٦٧ .

٣٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر:

المسعودي. تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد. دار المعرفة. بيروت١٩٦٤ .

٣٥- المسالك والممالك:

ابن خرداذبه. تحقيق دي خويه. ليدن ١٩٦٧ .

٣٦- المسالك والممالك:

الإصطخري. تحقيق د/ محمد جابر الحيني. دار القلم. القاهرة ١٩٦١ .

٣٧- المطرب في أشعار أهل المغرب:

ابن دحية. تحقيق/ مصطفي عوض الكريم. الخرطوم ١٩٥٤ .

٣٨- معجم الأدباء:

ياقوت الحموي. ط أحمد فريد رفاعي. القاهرة د. ت.

٣٩- معجم البلدان:

ياقوت الحموي. دار صادر . بيروت ١٩٨٦ .

٤٠- مقدمة ابن خلدون:

ابن خلدون . تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي. دار نهضة مصر ١٩٧٩ .

٤١- المقصور والممدود:

الفراء. تحقيق/ عبد العزيز الميمني الراجكوتي. دار المعارف ١٩٧٧ .

٤٢- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر:

الثعالبي. تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الكتب العلمية . بيروت .د .ت.

٢- المراجع العربية:

٤٣- الأدب الأندلسي من الفتح إلي سقوط الخلافة:

د/ أحمد هيكل. دار المعارف ١٩٧٩ .

٤٤- أدب الرحلات عند العرب:

د/ حسني محمود حسين. الهيئة المصرية العامة للكتاب (المكتبة الثقافية) ١٩٧٦ .

٤٥- أدبيات الجغرافيا والتاريخ:

جويدي. القاهرة .د. ت

٤٦- أسس النقد الأدبي عند العرب:

د/ أحمد بدوي. دار نهضة مصر ١٩٧٩ .

٤٧- الإسلام والفكر الجغرافي:

د/ صلاح الدين الشامي. منشأة المعارف. الإسكندرية ١٩٧٨ .

٤٨- أصول الفقه الإسلامي:

د/ زكريا البري. دار النهضة العربية. القاهرة.د.ت.

٤٩- الأعراب الرواة:

د/عبد الحميد الشلقاني. دار المعارف ١٩٧٧ .

٥٠- أنيس منصور ، حياته وأدبه:

مأمون غريب. المكتبة العصرية. بيروت. د. ت.

٥١- التراث الجغرافي اللغوي عند العرب:

د/ حسين نصار. مطبعة المجمع العلمي العراقي.

بغداد ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م.

٥٢- الجغرافيا والرحلات عند العرب:

.د/ نقولا زيادة. دار الكتاب اللبناني المصري- ١٩٦٢ .

٥٣- جهود المسلمين في الجغرافيا:

نفيس أحمد. ترجمة/ فتحي عثمان. القاهرة. دار الهلال . د. ت.

٥٤- جوائز الدولة في الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية:

المجلس الأعلي للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. جوائز عام ١٩٦٣ . القاهرة ١٩٦٥ .

٥٥- جولة في ربوع الشرق الأدني:

محمد ثابت. النهضة المصرية ١٩٥٢ .

٥٦- حديث السندباد القديم:

د/ حسين فوزي. دار المعارف ١٩٤٣ .

٥٧- حول العالم في(٢٠٠) يوم:

أنيس منصور. دار المعارف ، ١٩٧٥ .

٥٨- دائرة المعارف:

بطري الستاني. مطبعة المعارف. بيروت ١٨٨٤ .

٥٩- دراسات في الرواية الإنجليزية:

د/ أنجيل بطرس سمعان. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١.

٦٠- الرحالة المسلمون في العصور الوسطي:

د/ زكي محمد حسن. دار المعارف ١٩٤٥.

٦١- الرحلات:

د/ شوقي ضيف. دار المعارف ١٩٧٦.

٦٢- الرحلة: عين الجغرافيا المبصرة:

د/ صلاح الدين الشامي. منشأة المعارف. الإسكندرية ١٩٨٢.

٦٣- عصر الدول والإمارات (الجزيرة والعراق وإيران).

د/ شوقي ضيف. دار المعارف، ١٩٨٣.

٦٤- عصر الدول والإمارات (مصر والشام):

د/ شوقي ضيف. دار المعارف ١٩٨٤.

٦٥- الغابة:

مصطفي محمود. القاهرة. د. ت.

٦٦- فن المقال:

د/ محمد يوسف نجم. دار الثقافة. بيروت ١٩٦٦.

٦٧- المسعودي:

د/ علي حسني الخربوطلي. دار المعارف ١٩٨٠.

٦٨- مفهوم النثر الفني:

البشير المجدوب. تونس ١٩٨٢..

٦٩- نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي:

د/ حسين نصار. النهصة العربية . القاهرة ١٩٦٦ .

٧- النقد الأدبي الحديث:

د/ محمد غنيمي هلال. دار مطابع الشعب. القاهرة ١٩٦٤ .

٣- المراجع المترجمة:

٧١- بلدان الخلافة الشرقية:

لى سترنج. ترجمة : كوركيس عواد.. بغداد ١٩٥٣ .

٧٢- تاريخ الأدب الجغرافي العربي:

أغناطيوس كراتشكوفسكي. ترجمة/ صلاح الدين عثمان هاشم. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣-١٩٦٥ .

٧٣- تاريخ الأدب العربي:

بروكلمان. ترجمة عبد الحليم النجار وآخرين. دار المعارف .

٧٤- الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) : س.م. ضياء الدين العلوي. تعريب وتحقيق د/ عبد الله يوسف الغنيم ود. طه محمد جاد. دار المدنى. جدة ١٩٨٤ .

٧٥- الجغرافيا عند المسلمين:

كرامرس وآخران. كتب دائرة المعارف الإسلامية (٩) دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٨٢ .

٧٦- الجغرافيا في القرن العشرين:

جريفيت تيلور وآخران. ترجمة د/ محمد السيد غلاب ومحمد مرسي. القاهرة ١٩٧٤ .

٧٧- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري:

آدم متز. ترجمة د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة. مكتبة الخانجي، دار الكتاب العربي القاهرة - بيروت ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧م.

٧٨- دائرة المعارف الإسلامية:

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية. القاهرة.

٧٩- دراسات عن المؤرخين العرب:

مرجليوث. ترجمة د/ حسين نصار. دار الثقافة. د. ت

٨٠- ضرورة الفن:

آرنست فيشر. ترجمة/ أسعد حليم. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ .

٤- فهرست الدوريات

٨١- الأهرام:

عدد ٢ مايو ١٩٨٦ ، بعنوان: باحثة سورية تكتب عن أدب الرحلات الغربية في البلاد العربية.

٨٢- تراث الإنسانية:

المجلد الثامن ١٩٧٠ ، رسالة ابن فضلان في وصف رحلته إلي بلاد البلغار والخزر. فوزي العنتيل.

٨٣- الثقافة:

عدد ٥ أغسطس ١٩٤١ ، مقال د. عبد الحميد العبادي: «حديث الفتية المغررين» .

٨٤- عالم الفكر:

عدد يناير ١٩٨٣ ، الكويت، بعنوان «أدب الرحلات» مقالا: د. صلاح الدين الشامي، ود / نادية محمود عبد الله.

٨٥- العربي:

عدد يناير ١٩٨٧ ، بعنوان «أدب الرحلات في حياتنا الثقافية» د/ سيد حامد النساج.

٨٦- المأثورات الشعبية:

عدد يناير ١٩٨٧ ، الدوحة ، بعنوان : «التراث الشعبي في أدب الرحلات» د/ حسين فهيم.

٨٧- المصور:

عدد ٢٣ يونيو ١٩٧٢ . مقال محمود تيمور.

٨٨- معهد المخطوطات العربية:

عدد ٢٣ مايو ١٩٥٨ ، قطعة من كتاب مفقود: «المسالك والممالك للمهلبي» . د/ صلاح الدين المنجد.

٨٩- المقتطف:

١ - عدد فبراير ١٩٤٥ ، مقال: «عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها أبناء الغرب» ، الأب «نستاس الكرملي» .

٢ - عدد مارس ١٩٤٥ . تكملة المقال السابق.

٩٠- الهلال:

عدد يوليو ١٩٧٥ ، بعنوان «الرحلة في الأدب الإنجليزي» د/ أنجيل بطرس سمعان.

٥- المراجع الأجنبية:

1- Abu- Dulaf Misar Ibn Muhalhil's Travels in Iran . W. Minorsky. Cairo university Press. 1955.

2- A Dictionary Literary Terms. J.A. Cuddon. New York. 1977.

3- A Dictionary of Literary Terms. Magdi Wahba. Lebanon.

4- Hudud Al- Ālam. W. Minorsky and Bartold's preface. London. 1937.

5- Travel and Travellers of the Middle ages. Newton. A. P. London. 1930.

6- Travel Quest. M. A Michael. London. 1950.